محمد عزة دروزة

حول الحركة العربية الحديثة

الجزء الأول

حول

الحركة العربية الحديثة

تاريخ ومذكرات وتعليقات

تأليف

محمد عزة دروزة

الجزء الاول

يحتوي الكلام على الفكرة العربية وادوار الحركة العربية في عهد الدولة العثمانية والثورة العربية وتاريخها وادوار العهد الفيصلي في الشام وصور متنوعة عن هذا العهد وجمعياته ونشاطه

المطبعة العصرية — صيدا
٣ — ١٩٥٠

كلمة بين يدي الكتاب (١)

مدخل

في أهداف الفكرة العربية وعناصر القضية العربية

الفصل الاول

في انبعاث الحركة العربية الحديثة وادوارها في عهد الدولة العثمانية .

الدور الاول ١٩٠٨ – ١٩١١ دور الانبعاث

الدور الثاني ١٩١٢ – ١٩١٥ دور التكتلات السرية والحركات السياسية العلنية ومحنة الحركة

الدور الثالث ١٩١٦ – ١٩١٨ دور الثورة العربية الهاشمية

الفصل الثاني

في العهد الفيصلي في الشام ١٩١٨ – ١٩٢٠

الدور الأول ١ تشرين الاول ١٩١٨ – ٧ مارس ١٩٢٠

الدور الثاني ٨ مارس – ٢٤ تموز ٩٢٠ الحكم في الدورين – الجمعيات – المؤتمر السوري – أدوار النزاع مع فرنسة .

---

(١) اقرأ ثبت مواد الكتاب في آخره

بسم الله الرحمن الرحيم

فرغت من مسودة هذا الكتاب في شهر آب من عام ١٩٤٣ أثناء هجرتي الى تركيه ، وقد عدت اليها الآن فنقحتها واضفت اليها بعض الزيادات التي اقتضتها الأحداث .

والكتاب ليس تاريخاً ولا مذكرات ولا تعليقات صرفاً ، ففيه شيء من ذلك كله ، ولهذا سميته بالاسم الذي على غلافه .

ولقد حرصت على ان يكون في أسلوبه الاستعراضي سلسلة تامة الحلقات تناولت اهداف الفكرة العربية وعناصرها ونشوئها وما مرت به من ادوار وأطوار ورافقها من حركات ومظاهر متنوعة في مختلف الأقطار العربية وما لاقته من مناوآت وما كان من مواقف نضالية في سبيلها قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها .

وعلى كل حال فالكتاب لم يقصد به أن يسد فراغاً تاريخياً ما يزال الواجب القومي يدعو الى سده في صدد تاريخ الحركات القومية والنضالية التي قامت في مختلف البلاد العربية في سبيل الفكرة القومية العربية واهدافها ، وان ألمّ بشيء من ذلك لتكون السلسلة تامة شاملة بقدر ما يمكن .

وكل ما ارجوه وانا اقدّم للطبع الجزء الأول (١) من الكتاب ان أكون قدمت به خدمة قلية للفكرة التي قضيت في العمل في سبيلها اربعين عاماً ، وان يكون قد جاء مفيداً من مختلف النواحي التى الم بها ، وخاصة بعض الصور والذكريات والأحداث والأسماء والحركات التي لم تدون بعد ، وان يكون فيه العبرة والتنبية للناشئة العربية لتكمل ما نقص ، وتسد ما ثغر ، وتصل بالفكرة الى اهدافها المنشودة والله ولي التوفيق .

دمشق الشام – ٢٢ صفر الخير : ١٣٦٨

١٣ : كانون الأول ١٩٤٩

محمد عزة دروزه

---

(١) سيكون الكتاب اربعة أجزاء .

مدخل

- ١ -

اهداف الفكرة العربية

تستهدف الفكرة العربية الحديثة قيام كيان عربي قومي عام ، يضم مختلف الاقطار العربية ، موحد الشعور والثقافة والأهداف والمصالح والجهاز السياسي والاقتصادي والعسكري ، ويكون من القوة بحيث يضمن للأمة العربية الحرية والكرامة والسيادة ، والوصول الى مصاف الأمم القوية الراقية الحية ، وتبوؤ المركز اللائق بخصائصها وامجادها وما تشغله من حيز جغرافي عظيم في ساحته وموقعه وثرواته ، ونفوذ معنوي قوي في مختلف انحاء الأرض .

اصلية الفكرة

والفكرة القومية ليست طارئة على العرب من حيث متناولها العام ، فالتاريخ العربي قد امتلأ بالشواهد على أنها كانت بارزة في كثير من الادوار والمشاهد والمراحل العربية في حقب التاريخ الاولى ، وقبل الاسلام وبعده ، وفي مختلف أنحاء الأرض التي قدر للعرب أن يلعبوا دوراً فوق مسارحها . غير أن شعلتها قد انطفأت أو همدت فيهم بسبب ماطرأ عليهم من أحداث هدمت سلطانهم ، وقوضت بنيانهم ، واضعفت فيهم الشعور القومي، وجعلتهم يرضخون للسلطات والعناصر غير العربية ويستسيغون ذلك لاتحادهم معها بوحدة الدين ، ويرون في الخلافة الاسلامية التي كانت تتمثل اخيراً في السلاطين العثمانيين عزاً ورضاءاً يطمئنان شعورهم الديني الذي ساد شعورهم القومي بعد تلك الاحداث .

ولذلك تعتبر يقظتها في العرب بعثاً جديداً وقد جاءت من الغرب الى الشرق في ما جاء من افكار وتيارات . وقد كانت الفكرة القومية في ثوبها الجديد الذي يستهدف إنشاء كيان قومي موحد ، تنسكب فيه الكتل التي تمت الى اصل واحد أو تقطن بلاداً واحدة وتتكلم بلغة واحدة وتشترك في المصالح والاهداف قد انبثقت في اوروبا في القرون الاخيرة ، وعقب دور النهضة والحركة الاصلاحية الدينية،بعدان ارتكست هذه القارة في ظلمات الحكم الاقطاعي والمنازعات الدينية والوراثية والسياسية وحروبها امداً طويلاً .

فان النهضة والحركة الاصلاحية معاً انتجتا فيها حركة قومية تستهدف قيام كيانات قومية تقوم مقام الكيانات المرقعة القائمة فيها ، وتتألف كما قلنا من الكتل المتحدة في اللغة والموطن والمصالح ، فكان من ذلك القضايا القومية الاوروبيـــة المعروفة ، وسرت الى الشرق في اواخر العصر الفائت فكان مما كان القضية القومية التركية والقضية القومية العربية .

- ٢ -

عناصر القضية العربية وفوزها

وبعث الفكرة العربية من جديد لا يعني نشوء عناصرها من جديد كما هو بديهي فالقضية القومية العربية احتوت في الحق عناصر القضايا القومية ، بل ان هذه العناصر فيها اقوى من الوجهة النظرية منها في كثير من القضايا القومية الحديثة وخاصة الاوروبية.

فالفكرة القومية الحديثة قامت على اساس وحدة اللغة والموطن والعواطف والتاريخ والمصلحة ، غير ان هذه الوحدة في كثير من القضايا القومية الاوروبية حينما اخذت تنتشر هذه الفكرة فيها لم تكن من القوة والعمق بحيث يصح ان تكون هذه القضايا بديهية بها كما هو الامر في القضية العربية .

فالوطن العربي الحاضر هو نفسه منبت أو موطن الجنس العربي ومهاجر موجاته

التاريخية التي خرجت من الجزيرة العربية منبت الجنس العربي الاصلي منذ الأزمنة العريقة في القدم ، والتي سميت بالموجات السامية تحكما (١)

والدم العربي الاصلي ما يزال حياً متمثلا الى الآن في جزيرة العرب التي يتصل سكانها بسائر سكان مواطن العرب الاخرى اتصالا وثيقاً ، والتي ظلت وما تزال تمدهم من آن لآخر بحيويتها المستمرة ، وموجاتها الكبرى والصغرى الدائمة والتي تتمثل في القبائل الكثيرة المنتشرة في بلاد العراق والشام ومصر والمغرب فضلاعن جزيرة العرب كلها ، ابتلعت القرى والمدن فريقاً حل محله فريق آخر مما لا يكاد يكون له نظير وبالنسبة للأمم الغربية بنوع خاص .

وهذا الوطن العربي متصل بعضه ببعض اتصالاً غير منقطع بأي قاطع جنسي آخر . واللغة العربية اليوم هي نفس اللغة العربية منذ الف وخمسمئة سنة على الاقل (٢) في مميزاتها وقواعدها وأساليبها ومفرداتها وادبها وشعرها وامثالها ، بقطع النظر عن اختلاف اللهجات العامية المحلية التي تتوارى في الكتابة والقراءة والثقافة والتعليم ، والتي هي بسبيل التواري في المخاطبة أيضاً بنسبة تعمم التعليم .

وطابع العروبة الصريح باسمها ولغتها وخصائصها قد أخذ يطبع هـذا الوطن – أصله ومهاجره – بلونه منذ الف وخمسمئة عام على الأقل ، حيث أخذت تنشىء الموجة العربية الصريحة قبل الموجة الاسلامية الكبرى – وهي الموجة التي يمكن ان تسمى بموجة سيل العرم - الدول والمدن والقرى والبوادي في العراق والشام وسيناء؛ وحيث اخذت القبائل العربيـة الصريحة تغدو وتروح في هذه الارجاء ؛ ثم استقر كذلك خالداً خلود التقديس الى الآن والى ما شاء الله بالموجة الاسلاميـة العربيـة الكبرى وقـد شملت هذه الموجة شمال افريقية – مصر وبلاد المغرب – وطبعتها بطابع العروبة الخالد ، فأصبح الوطن العربي يمتد منذ الفتوحات الاسلامية الأولى

---

(١) نعني أن هذه التسمية غير قائمة على اساس تاريخي وثيق . فهي مستندة الى النظرية التوراتية التي تقرر أن سام بن نوح هو ابو الأقوام التي عاشت في جزيرة العرب وأطرافها . والتسمية الحقيقية أو الأقرب للحقيقة التي يجب ان تسمى بها الموجات هي « الموجات العربية » لأن طابع العروبة الصريحة على جزيرة العرب هو الطابع الذي عرف وامتد معروفاً قائماً .

(٢) إن هذا مستند الى اعتبار اللغة القرآنية هي التي كانت اللغة السائدة والمفهومة في اوساط العرب بوجه عام قبل نزول القرآن بمدة ما فسماها القرآن لساناً عربياً مبيناً . اقرأ كتابنا عصر النبي وبيئته قبل البعثة .

من خليج البصرة شرقا الى ساحل الاطلانطي غرباً .

ولم يكن من شأن ماطرأ على هذا الوطن وخاصة على مهاجرالعرب من احداث وغزوات غير عربية الجنس مهما كان شأنها من القوة وطول الأمد ان تغير من معالم هذا الطابع الخالد وخطوطه الاساسية .

ولعل من الأدلة على طبيعية هـذا الطابع وقوته ، وعلى طبيعية عروبة مهاجر العـرب اعـني غـير جزيرة العرب مـن مـواطن العرب الحـاضرة اوبمعنى آخر عـلى وحـدة الدم والخصائص والروح في سكان جزيرة العرب ومواطن الهجرة العربية الطبيعية ، ان اليونان والرومان الذين استعمروا بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا ، وان الفرس الذين استعمروا بلاد العراق امداً طويـلا جداً بعد دولها العربية الجنس او بحسب التسمية التحكمية السامية - لم يستطيعوا أن يطبعوا هذه الأقطار بطابع خالد يمكن ان يغطي على الطابع العربي الأصلي او يستأصله ، وان الموجة الاسلامية العربية لم تلبث ان مسحت ما كان من غشاء غير عربي الجنس على الطابع الأصلي رغم بقائهم قرابة الف عام (٣٦٠ ق م - ٦٣٠ ب م) ورغم شمول المسيحية اهل البلاد ومستعمريها قبل الفتح الاسلامي مدة طويلة ، وان طبعت هذه المهاجر بالطابع العربي الصريح ، ولم يلبث السابقون ان اندمجوا وامتزجوا باللاحقين اندماجاً وامتزاجاً تامين روحاً ودماً ومظهراً ؛ في حين ان هـــذه الموجة التي اكتسحت ايضاً بلاداً غير عربية الأصل والدم كبلاد فارس والأفغان والأتراك والهند والقفقاس والخزر وارمينية وبعض انحـاء الصين وبعض سواحل واقطار وجزر اوروبا لم تستطع ان تطبعها طبعاً خالداً إلا بطابعها الديني ، ولم يلبث طابعها القومي واللغوي ان توارى عنها .

وهذا كان شأن تلك المواطن او المهاجر العربية مع الترك الذين اكتسحوها اكتساحاً واسماً تسلطاً وهجرة منذ القرن الهجري الثالث ، ودام هذا الاكتساح قرابة الف عام ، فانهم لم يستطيعوا ان يغيروا معالم الطابع العربي فيها مع ما كان من انهدام كيان العرب السياسي ، وخمود حرارة الشعور القومي العربي خموداً يكاد يكون تاماً ، مما ينهض كذلك دليلا قويا على طبيعية الطابع العربي واصالته فيها .

هذا الى ارتكاز القضية العربية الى وحدة تاريخية ووحدة روحيه وثقافية وتشريعية اشتملت الوطن العربي الكبير منذ اكثر من الف عام دون انقطاع حقيقي ، بحيث

ظل سكانه يعيشون في جو تاريخي وروحي وتشريعي واجتماعي ولغوي واحد تقريباً، ولم يكن من شأن ما كان يقوم من مظاهر وسلطات ومنازعات ونزعات متباينة، وغزوات خارجية أحياناً أن يخلق تبايناً حقيقياً في ذلك الجو بوجه الاجمال .

وكل هذه خصائص وميزات في قوة عناصر القضية العربية القومية لا مثيل لها في مجموعها وفي مفرداتها في القضايا القومية الاخرى أو اكثرها كما قلنا ، ولا سيما من ناحية الاستمرار والامتداد خلال الاحقاب الطويلة . فوحدة اللغة التامة في كثير من القضايا القومية لا ترتفع الى اكثر من بضعة قرون بحيث تكاد تكون لغة ماقبل هذه المدة غريبة على أنسال اليوم وسوادهم ، ومقطوعة الصلة بين غابرها وحاضرها، ووحدة الوطن والميول والتاريخ والدم والمصالح في كثير منها لا ترتفع كذلك الى اكثر من بضعة قرون ايضاً بحيث كان الطابع والميول والتاريخ والمصالح متباينة تبايناً كبيراً ...

- ٣ -

أستدراكات وتعليقات وردود في صدد عناصر القضية

ومن العجيب ان يكابر بعض الغربيين أو بتعبير أدق الاستعماريون الغربيون في هذه الحقيقة رغم وضوحها ومتانة بنيانها ، وان يزعموا ويبثوا دعاياتهم المباشرة وغير المباشرة بأن سكان المهاجر العربية ونعني بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب هم خليط من شعوب واجناس ونحل مختلفة وانه ليس هناك وحدة تجمعهم يصح ان تنعت بالوحدة القومية ، مشيرين بذلك الى الفينيقيين والكنعانيين والاشوريين والاثيوبيين والبربر الذين كانوا يقطنون هذه البلاد في القديم ، والى ما طرأ عليها بعد الاسلام من طرآء مختلفي الاجناس شرقيين وغربيين مقررين ان سكانها انما هم من انسال هؤلاء واولئك في الدرجة الاولى ، ومشيرين بذلك ايضا الى ما يوجد في هذه البلاد اليوم من كتل مختلفة في الجنسيات والاديان والمذاهب ، وان يؤخذ بعض العرب بهذه المزاعم والدعايات الزائفة مما كان من مظاهره دعاوى الفينيقية والفرعونية والبربرية والاشورية التي اثيرت في لبنان ومصر والشام والعراق من

قبل المأجورين والمخدوعين ، كأن الوحدة اللغوية والتاريخية والروحيه والاجتماعية التي تشمل الآن سبعة وتسعين في المئة على الاقل من سكان الوطن العربي الكبير والتي تمتد في القدم الى اكثر من الف عام لا تكفي بصرف النظر عن أي شيءآخر لصفة الوحدة القومية مع أن نصف هدة المدة أو ثلثها كفى في نظر هؤلاء المكابرين والمأجورين والمخدوعين والمستعمرين لصفة مثل هذه الصفة في البلاد الاجنبية وخاصة في اوروبا واميركا .

ولقد تجاهل هؤلاء ما قررناه من ان سكان هذه البلادالقدماء ليسوا إلا موجات عربية ، وان الزيف في دعواهم ظاهر وأنها لا تؤدي الا الى عكس المقصود حينما تتسلط عليها اشعة الحقيقة – وهذا ما حصل وأخذ يحصل ويقوى – حيث يبدوأنها تخدم تقرير حقيقة عراقة العروبة وطابعها اكثر مما تحاربها وتنقضها .

كذلك تجاهلوا أن اختلاف المذاهب الدينية ليس من شأنه أن يكون ذا اثر في الصفة القومية في الحقيقة ، وان هذا ليس خاصا بالبلاد العربية وسكانها .

أما الطرآء الشرقيون والغربيون الذين طرأوا على البلاد العربية بعد الاسلام قديماً وحديثاً فان القديمين منهم قد امتزجوا بالدم العربي والبيئة العربية وانطبعوا بالطابع العربي ، ومرت عليهم احقاب طويلة ، وليس لهم لغة غير اللغة العربية ، ووطن غير الوطن العربي . وقد وحدت أحداث التاريخ واحقاب الزمن بينهم وبين العرب الاصليين ممن جاؤا بالموجة الاسلامية الكبرى أو قبلها أو بعدها . فمن الطبيعي جداً ان يصبحوا عرباً تاريخياً وقوميا ، وإن لم يكونوا عرباً اصلاً ودماً . وهذه الظاهرة قائمة في جميع البيئات القومية الاخرى . بل ان اكثر هذه البيئات انما يقوم عليها من جهة ، ولعلها في القومية العربية اقوى منهافي غيرها أو من اكثر هذا الغير بسبب امتداد الزمن من جهة أخرى .

والحديثون الذين لا يحتفظون بطابع او لغة اعجمية خاصة ، وليس لهم غير العربية لغة ، وليس لهم صلة ما بموطن أو دولة غير الموطن العربي والدولة العربية يجري عليهم القول نفسه بطبيعة الحال .

اما الحديثون الذين لايزالون يحتفظون بطابعهم ولغتهم الأعجمية الخاصة فهؤلاء اقسام : منهم الذين لايزالون متصلين بموطنهم ودولتهم فيه، فهؤلاء يعتبرون نزلاء

ومثلهم موجود في كل مكان وليس من شأن وجودهم ان يناقض النظرية القومية بوجه عام ، عدا كونهم لا يكادون يتجاوزون واحداً في المئة من مجموع العرب في سائر انحاء الوطن العربي الكبير . ومنهم من انقطعت صلته بوطنه ودولته الأصلية او لم يعد له موطن او دولة . ومن اهمهم كتلة الاكراد في الانحاء الشمالية من العراق والشام الذين انفصلت بلادهم عن بلاد الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، واصبحت جزءاً من اجزاء العراق او سورية في تكوينها الحديث ، وهم متحدرن مع الأكثرية العربية الساحقة في الدين الاسلامي، وقد ارتبطت مقدراتهم بالامة العربية ارتباطاً وثيقاً منذ الآماد الطويلة فأصبحوا والعرب بمثابة واحدة . وهم في القطرين لا يزيد عددهم على ستمئة الف من نحو تسعة ملايين . ومنهم الشراكسة في بلاد الشام ، وهؤلاء قلة ضئيلة طارئة من جهة وهم بسبيل الانسباك في القالب العربي . وعددهم لا يكاد يبلغ الثلاثين الفاً في سورية وشرق الاردن . ومنهم الأرمن في بلاد الشام – سورية ولبنان – وهم منبثون في انحائها المختلفة وقد أخذوا يمتزجون بالعرب ويستعربون تدريجياً ، والى هذا فعددهم لا يتجاوز مئة وخمسين الفاً من نحو خمسة ملايين ونصف .

ولم نشأ ان نذكر القبائل البربرية في المغرب لأنهم فضلاً عن ما هناك من نظريات علمية مستندة الى علم اللغات والخصائص الجنسية البشرية ترجع أنهم يمتون في أصلهم الى جزيرة العرب وأنهم إحدى موجاتها في عصور التاريخ القديم كالأثيوبيين والقبطيين والأشوريين والكنعانيين والبابليين والفينيقيين والآراميين فهم مسلمون منذ اكثر من الف عام ، وممتزجون بالعرب والقبائل العربية منذ القرون الطويلة، وقد استعرب كثير منهم واندمجوا في العروبة المغربية الاسلامية، وإن كانوا حافظوا على بعض لهجاتهم كما هو شأن غيرهم من العرب في مختلف الانحاء ، بحيث يمكن ان يعدوا والعرب بمثابة واحدة .

بقي اليهود في فلسطين ، وهم طراء واكثريتهم الساحقة اوروبيون آريون اصلا ودماً وثقافة . ومهما وصلوا اليه من عدد ومظهر سياسي وقومي خاص فانه ليس من شأنه ان يغير طبيعة الطابع العربي بفلسطين ذاتها والتي ما يزال اكثرها عربياً، فضلاً عن انه ليس من شأنه ان يخل بقضية عروبة الوطن العربي الكبير الذي



العالم العربي في القرون الوسطى

تمثل المساحات المخططة المناطق التي استقرت فيها العروبة بصورة دائمة

ليس عددهم والجزء الصغير الذي تكثفوا فيه في فلسطين تكثفاً اصطناعياً فاقـــد الاتساق والانسجام إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لمساحة وسكان هذا الوطن ؛ كما أن تنبه العرب لخطرهم واخلاقهم ومطامعهم سيكون باعثاً لهم وهم محدقون بهم من كل ناحية على الاستمرار في النضال معهم وتضييق الخناق عليهم الى ان يقضوا على ذلك المظهر الغريب ويعيدوا للجزء الذي تكثفوا فيه صبغته العربية إن شاء الله . وفي الشواهد التاريخية ما يجعل هذا الأمل حقيقاً بالتحقق عاجلاً او آجلاً .

- ٤ -

استطراد الى اليهود واليهودية

ونقول استطراداً إن مما استغله اليهود في دعايتهم ودسائسهم «الأصل السامي» ، فقالوا إننا ساميون منشؤنا جزيرة العرب ، خرجنا في احدى موجاتها واستقررنا في فلسطين ، وتميزت فيها شخصيتنا وصار لنـــا فيها أمجاد واصبحت وطننا ، وظللنا مرتبطين بها ردحاً ، فنحن غير طارئين وإنما عائدون ، والعرب ابناء عمنا ، ونحن وهم من ارومة واحدة ودم واحد ، وشركاء في وطن واحد . وقد اخذ البعض بهذا القول ، ووجدوا أو بالأحرى وهموا أنه يوجد في قضية اليهود مشكلة علمية او تاريخية او قومية في مجال النظرية القومية العربية وشمولها اولاً ، وفي مجال ما إذا كان يصح علمياً للعرب أن ينكروا هذه القرابة ويتنكروا لها ثانياً ، وما إذا كان لهم من الوجهة القومية الجنسية ان يعتزوا او لا يعتزوا بالأمجاد العبرية كما يعتزون بالامجاد البابلية والأشورية والفينيقية والآرامية والسبئية ثالثاً . بل وان من العرب من اخذ بهذا القول ولم ير بأساً من ذكر العمومة بين العرب واليهود تحت وهمه . اما نحن فلسنا نرى هنا مشكلة من أي جهة ، ولسنا نرى من ناحية اخرى في دعوى اليهود الحديثين هذه إلا زيفاً . فإذا كان العبرانيون من احدى موجات جزيرة العرب أو حسب تعبير ناتمنون إلى الجنس العربي الأصلي فقد كان كذلك الذين قبلهم في فلسطين وهم الكنعانيون ، كما كان كذلك الذين كانوا يسكنون غير فلسطين من المهاجر العربيـــة الاخرى . ولقد اكتسحت المسيحية كثيراً من العبرانيين وغير العبرانيين من بقايا الموجات الأولى

في فلسطين والمهاجر العربية الاخرى فاعتنقوها ، ثم اخــذ المستقرون من هذه الموجات يندمجون في الموجات العربيــة الصريحة قبل الدعوة الاسلامية وبمناسبتها؛ وقد طبعت هذه الموجات الوطن العربي بالطابع العربي الصريح الخـالد ؛ ولم يبق عبرانيون في ناحية من أنحاء هـــذا الوطن محتفظون بلون خاص ولغة خاصة منذ الأحقاب الطويلة حتى يمكن ان يكون في وجودهم مشكلة ما تقف في سبيل صحة شمول النظرية القومية العربية الصريحة للوطن العربي ، او في سبيل قيام شيء اسمه عبراني سامي إزاء مايسمىء بيأ سامياً . والطائفة السامرية التي تزعم ذلك والمتوطنة في نابلس ليست من عبراني فلسطين وانما هي من آشوريي العراق على ما يرجحه ثقات المؤرخين؛ على انها مستعربة منذ الآماد الطويلة وكل امرها أنها محتفظة بديانتها التوراتية ؛ وعددها اليوم لا يزيد على المئتين عداً . وإذا كان التاريخ يفيد أن بعض شراذم اليهود العبرانيين قد جلوا عن فلسطين فان هذه الحادثة ترجع الى نحو الفي عام ؛ ولا يعقل ان يكون الجالون كتلاً كبيرة ، والمرجح انهم لم يكونوا ليزيد مجموعهم عن بضع عشرات من الالوف . وقـد تشتتوا في انحاء الأرض منذ ذلك التاريخ البعيد ، واختلطت دماؤهم بدماء الامم الكثيرة المختلفة التي عاشوا بينها ، فلم يبقوا أولئك اليهود الجالون إلا بالاسم والدعوى؛ هذا إلى كون التسمية اليهودية اعم من التسمية العبرانية. وليس مما يمكن التسليم به علمياً ان اليهود الجالين هم من كان من دم عبراني او على الأقل من دم عبراني فقط فضلاً عن أنه من الثابت علميــاً وتاريخياً ان كتلاً كبيرة برمتها من اصل آري في آسيا واوروبا اتخذت اليهودية ديناً بحيث يصح ان يقال إن اكثر اليهود هم من أنسال هذه الكتل، وإن الدم العبراني الذي كان في الجالين الأولين قد اندثر او كاد ، وان قصارى ما في الأمر ان الدين هو الطابع المخصص للكتل التي تعتنق اليهودية والتي تمت بدمائها واصولها الى مختلف الجنسـيات ، شأنها في ذلك شأن الأديان الكبرى العامة التي يجتمع تحت لوائها كتل مختلفة الاصول والجنسيات ؛ وليس من شأن ذلك وحده ، ولم يكن من شأنه في وقت ما ان يسبغ على هؤلاء صفة قومية مميزة .

وبقاء اليهود في كل مكان وجـــدوا فيه كتلا منطوية على نفسها في مساكنها ومعايشها واخلاقها وعاداتها وازيائها ، ومعرضة للأحقاد والاضطهاد والاحتقار ليس من شأنه ان يعضد دعوى الدم العبراني الخاص فيهم او دعوى اصلهم السامي ؛ وانما

هو متصل بوجودهم بين الكثرة الدينية الاخرى التي يقوم العداء الطبيعي الديني والاجتماعي بينها وبينهم، ونتيجه من نتائجه، ومظهر من مظاهر حياة الاقلية الدينية والمذهبية وسط الكثرة الدينية الاخرى في القرون الوسطى، وما تفرضه هـــذه الحياة .

فليس من باحث عاقل ومنصف يبيح لنفسه ان يرى والامر كذلك ما يمكن الاستناد اليه بشيء من القوة في تقرير السامية الاصلية لليهود منذ القرون الوسطى الى اليوم حيث يعدون خمسة عشر مليوناً اولا، وفي تقرير القرابـــة بينهم وبين العرب ثانياً، وفي صحة دعوى الحق المزعوم بالعودة الى الوطن .

وإذا كنا نرى تميزاً ظاهراً في الشخصيات القومية، وتناحراً شديداً بسبب اختلاف المصالح الناشيء عن هذا التميز بينما قرابة هذه الشخصيات الدموية اقرب عهداً مما يدعى من قرابة بين العرب واليهود بما تنفقد فيه النسبة فيكون من الزيف تناسي هذا التميز الظاهر اليوم بين الشخصية العربيـــة والشخصية اليهودية بطبيعة الحال .

وبقطع النظر عن كل هذا فان حق عودة امة ما الى بلد ما لانها سكنت فيه زمناً ما وخاصة زمناً يعود الى ما قبل الفي عام ثم ينقطع ما بينها وبينه من جهة، وهي طارئة عليه من جهة، ولم تعش في مكان ما عيشة قومية من جهة، ولا يجمع بينها الا الطابع الديني من جهة، ودخل فيها عناصر ودماء غريبة كثيرة في مدى الاحقاب الطويلة حتى اندثر دماء القلة الاولى التي حملت دماءها القومية او كاد من جهة، وقام في ذلك البلد امة ثانية صار لها فيه امجاد وتاريخ مديد من جهة، من السخف بحيث لا يستحق النظر العلمي، ومن شأنه ان يقلب اوضاع العالم بصورة مستمرة .

فالوصف الصحيح لليهود اليوم بالنسبة إلى فلسطين والعـــرب هو انهم طراء غريبون متميزون عن الجنس العربي في اللغة والدم والثقافة والعادات، ودعواهم لا ترتكز الى منطق صحيح في اي نقطة من نقاطها . والوصف الصحيح للقضية اليهودية هو ان بعض سياسي اليهود ومتنوريهم تأثروا . ريخ اضطهاد اليهود المديد الذي اشترك فيه جميع امم الأرض التي حل بينها اليهود، والذي كان الباعث الحقيقي له

جبلة اليهود وعزلتهم وعدم اندماجهم في الامم التي حلوا فيها وعدم اخلاصهم لها ، ومحاولتهم استغلالها دون اي مقابل ، وتأثروا كذلك بالفكرة القومية التي اجتاحت اوروبا ، واتخذوا ما لفلسطين في التاريخ اليهودي القديم من ذكريات دينية وسياسية وسيلة للدعاية والدعوة الى فكرتهم . والوصف الصحيح لليهودية هي أنها نحلة دينية يجتمع فيها مختلف الاجناس ، وليست صفة شعبية او قومية مطلقاً .

اما اعتزاز العربي بالامجاد العبرانية القديمة – ويدخل فيها امجاد موسى وداود وسليمان وعيسى وغيرهم من انبياء بني اسرائيل وملوكهم وعظمائهم – فلا نرى بناء على ما قدمنا تناقضاً بينه وبين إنكار جنسية اليهود اليوم ، واعتبارها منقطعة الصلة بالأصل والدم العبراني او بالأصل والدم العربي القديم . فمن حقه ان يعتز بصاحبي اليهودية والنصرانية وتوراتها وانجيلها كل الاعتزاز ، ومن حقه ان يعتز بامجاد داود وسليمان الدنيوية والسياسية والعمرانية ، وبما اتى به انبياء العبرانيين من حكم وغذاء روحي على اعتبار ان هؤلاء متصلون بأرومة واحدة مع العرب ونابعون من منبع واحد . والمسلمون العرب الذين هم اكثرية العرب الساحقة مدعوون إلى هذا دينياً في الوقت نفسه . وشأن العربي في هذا شأنه من الاعتزاز بالأمجاد الفينيقية والبابلية والأشورية والآرامية والكنعانية والاثيوبية والمصرية والسبئية والمعينية والحميرية والبربرية التي يتصل اصحابها بالعرب في ارومة واحدة ، وينبعون وإياهم من نبع واحد .

- ٥ -

ومن هذا الايجاز يظهر ان مواطن العرب خارج الجزيرة العربية هي مهاجر العرب من الجزيرة ، وان الموجة العربية الاسلامية الكبرى انما هي احدى موجات الجزيرة جاءت بدين جديد وطابع عربي صريح فلم يلبث اهل هذه المواطن ان اندمجوا فيها اندماجاً حاسماً وطبيعياً بسبب وحدة الدم والخصائص ، وان الطراء القديمين والحديثين المستعربين هم في حكم العرب في العرف الاجتماعي الحاضر ، وان المسلمين الذين لم يستعربوا منهم تماماً مندمجون في العرب بوحدة الدين وهم في مثابتهم فضلا عن انهم لايكادون يبلغون الاثنين في المئة ، وان غير المسلمين المستقرين الذين

لم يتعربوا منهم ليسوا نسبة تذكر ، وان غير المستقرين منهم لا يزيدون عن الاثنين في المئة ، وانه ليس من شأن هذا أن ينقض شمول النظرية العربية القومية لجميع انحاء الوطن العربي الكبير .

شمول نظرية القومية العربية الحديثة

وننبه على اننا مع ما قلناه لا نبني نظريتنا في القضية القومية العربية على اساس وحدة الـدم والجنس والدين فقط ، وإنما نبنيها ايضاً على الاساس القومي المفهوم والمعتبر الآن بصورة عامة وهو وحدة الموطن واللغة والمصلحة والعادات . وإذا كنا اشرنا الى منبت العروبة الجنسية ومهاجرها القديمة او الى قدم التاريخ الذي انسبك في طياته سكان مواطن العـــرب في قالب واحد ، او الى شمول الدين الاسلامي لأكثرية هؤلاء السكان فاننا فعلنا هـــذا بسبيل التدليل على قوة عناصر القضية العربية وبميزاتها .

وظاهر ان هذا الاساس اوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين . لانه يعتبر به عربياً قوميا كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها ، ومستقر بالوطن العربي ، ومندمج في بيئته وعاداته وتقاليده ومصالحه ، مع سائر المستقرين فيه والمندمجين في بيئته وعاداته وتقاليده ومصالحـــه ، وليس له صلة وهوى ببلاد وقومية اخرى مهما اختلفت الاصول والاديان والمذاهب .

الفصل الأول

انبعاث الحركة العربية الحديثة وأدوارها

في عهد الدولة العثمانية

- ١ -

بدء الانبعاث قبل الدستور العثماني ومداه

مع شيء من التجوز يصح ان يقال ان امارات انبعاث الحركة العربية الحديثة قد بدت في القرن التاسع عشر ؛ وتمثلت بالحركات الاستقلالية في مصر وفلسطين واليمن التي حمل لواءها بعض امراء مماليك مصر ومشايخ فلسطين وأئمة الزيدية ، وبالحركة الاصلاحية الوهابية التي امتزجت بالمطامح السياسية وجعلت ابن السعود الكبير حامي هذه الحركة يزحف على بلاد الحجاز لتوطيد سلطان عربي جديد في القسم الشمالي من جزيرة العرب ، وبما انطوت عليه بصورة خاصة مطامع وحركات محمد علي الكبير من فكرة اقامة امبراطورية عربية فتية تضم مصر والشام والحجاز بل والعراق واطنه وما كان من تحالفه في سبيل بعض هذه المطامع مع الامير بشير الشهابي وبعض مشايخ فلسطين وامراء الخليج العربي ، وان كان الحافز في هذه الحركات شخصياً اكثر منه قومياً . وتمثلت كذلك بالحركة الادبية والعلمية التي ظهرت في سورية ولبنان بعد منتصف القرن المذكور والتي بدت فيها المطامح القومية اكثر بروزاً وعمومية ؛ وكان من آثارها حركة شباب الجامعة الاميركية العرب وجمعية النهضة العربية والجمعية العربية في بيروت وصيدا والجمعية العربية الوطنية في دمشق ، ورابطة الوطن العربي في باريس ؛ حيث هذه المنظمات التي انشأها شباب وكهول مسلمون ومسيحيون مشتركا او انفراداً تعمل بتحفظ وحيناً بسرية في سبيل ايقاظ الروح العربية وتحريك الشعور العربي ، والتذكير بأمجاد العرب والتوجيه لاستقلال العرب الذاتي او التام بالكتابة والخطابة ، عدا الاخيرة

التي كانت تتمع بحريتها بسبب وجودها في باريس ، فتنشر النشرات والرسائل في التنديد بالترك والاشادة بالامجاد واللغة العربية ، ودعوة العرب الى الاتحاد والتمرد والاستقلال ، وخاصة في البلاد الشامية . غير ان هذه الحركة ظلت ضيقة النطاق ضعيفة المدى والاثر ، غير مستمرة النشاط .

- ٢ -

الانبعاث الصحيح بعد الدستور

ومع ما كان من أمارات انبعاث الفكرة العربية وخاصة في الحركة الاخيرة ووضوح الفكرة القوميـة فيها فان من الحق ان يقال ان ظهورها قوية وواضحة وواسعة وعملية معاً قـد كان نتيجة من نتائج اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وكرد فعل للحركة القومية التركية التي اشتدت كذلك بعد هذا الاعلان .

اثر الحركة التركية القومية

فان بعض شباب الترك ومتنوريهم قـــد اعتنقوا الفكرة القومية قبل اعلان الدستور، وانشأوا جمعيتهم السرية التي كان اسمها – جون تورك – «تركية الفتاة» دليلًا عليها ، واخذوا يسعون في بثها بين المستنيرين ، ومزجوا دعوتها بالدعوة الى مقاومة استبداد السلاطين والعمل على اقامة الحكم في الدولة العثمانية على اساس دستوري يضمن للامة حريتها وحقوقها ، ويفتح امامها الآفاق ، ويزيل عنها كابوس الاضطهاد والجهل الذي اناخ عليها بكلكله . وكان بعض شباب العرب ومستنيريهم مندمجين في هذه الدعوة ، ومنهم من كان منتسباً الى تلك الجمعية على اعتبار انها جمعية سياسية عثمانية . ولعل كتاب طبائع الاستبداد العظيم للاستاذ الجليل الكواكبي من أثار هذا الاندماج ؛ ولا سيما ان السلطان عبدالحميد الثاني كان قد اعلن دستوراً فيه تلك الضمانات والمزايا عقب ارتقائه العرش عام ١٢٩٣هـ – ١٨٧٥م بمساعي بعض الرجال العثمانيين المستنيرين بزعامة مدحت باشا ، واشترك رجال العرب ونوابهم فيما كان من آثاره من منظمات حكومية ونيابية ، وتذوق مستنيروهم طعم الحرية والشورى ،

ثم اوقف العمل به وحكم الدولة حكماً استبدادياً ثقيل الوطأة .

فلما نجحت المساعي وأعلن الدستور للمرة الثانية عام ١٩٠٨ أخذ نشاط أركان جمعية تركية الفتاة التي توارت وراء حزب سياسي علني هو جمعية الاتحاد والترقي يزداد ودائرة نفوذهم تتسع ، وأخذوا يخطون خطوات واسعة نحو الاستيلاء على الحكم والهيمنة على الدولة ، كما جعلوا يبثون الفكرة القومية التركية ويثيرون عاطفتها في نفوس الأتراك وخاصة نفوس ناشئتهم ، مستهدفين كنتيجة لازمة لها إستعلاء العنصر التركي في بلاد الدولة . وقد كان مما عمدوا إليه إنشاء فروع وأندية للحزب في مختلف المدن العربية والشامية والعراقية وجعلوا أزمتها في أيدي موظفين او ضباط من الترك المتحمسين لغاياتهم وأهدافهم ، وأخذوا يدخلون فيها من رأوا في دخوله فائدة من العرب موظفين وغير موظفين وشباناً وغير شبان لتكون لهم منهم أداة تأييد وتعضيد وتهدئة وتمويه ، وقوى انتخابية لانتخاب من يرشحونه للمجلس النيابي ممن يضمنون مسايرتهم وولاءهم وقلة خطرهم ، حتى لقد بلغ استهتارهم بالعرب إلى ترشيح نواب ترك في بعض الأنحاء العربية ، وإلى التدخل في الانتخابات علناً وعنوةً لضمان انتخاب من يرشحونه . ولقد حاول السلطان عبد الحميد وبعض انصاره ومأجوريه الرجوع عن الدستور والتنكيل بالاتحاديين ، فزحف محمود شوكة باشا العراقي التركي على رأس جيشه من سلانيك ودخل الأستانة وتمكن من قمع الحركة وخلع السلطان ؛ ونتيجة لذلك استولى الاتحاديون على الحكم فعلاً ، وغدت الدولة ودوائرها في العاصمة والولايات تحت هيمنتهم ، والتزموا طريقة عدم توظيف موظف ما تركياً او غير تركي في وظيفة رئيسية بل وثانوية إلا بعد أن يقسم يمين الولاء لحزبهم ، كما كان من شأن هيمنتهم أن اضطر كثير من الزعماء والنافذين إلى موالاتهم ، لأنه لم يكن يتيسر مصلحة ما ذات شأن تخص هؤلاء أو يبتغونها ما لم يحصلوا على تزكية أو مساعدة من مركزهم أو فروعهم ؛ بل لقد مر دور كان الناس فيه يتقدمون بعرائضهم المتعلقة بمصالحهم وشؤونهم على اختلافها إلى مركز الحزب وفروعه وأنديته ، وحتى وقع في الأذهان أن هذا المركز وفروعه هي الحكومة الحقيقية ، وقد قوي الحزب بذلك كله قوة عظيمة ، وأخذ يسير نحو غاياته قدماً وجهرة ودون مبالاة ؛ فلم يلبث أن تنبه متنورو العرب من شباب وشيوخ إلى ما في هذه الغايات من خطر على كيان العرب ومساس بكرامتهم واستهتار بمصالحهم ،

وكان كثير من شباب العرب في مدارس الآستانه يحتكون في مقاعد الدرس بشباب الترك ويشعرون منهم بقوة التيار ، وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بينهم في صدد أهداف الحركة فيلمسون فيهم النيات المريبة ، فيزداد بها القلق ويقوى الحافز والتنبه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ظروف الدستور ، وما فتحه من آفاق الحرية ، وأحدثه من هزة ورجة وحركة وآمال ، وما انكشف لمتنوري العرب بفضله من أفكار الغرب وأحداثه وحركاته القومية مما كان ايضاً منبهاً وحافزاً لاعتناقهم الفكرة استهدافاً لانهاض الامة العربية وتجديد حياتها ، وتدعيم بنيانها ، والدفاع عن لغتها وحقوقها ، وتذكيرها بأمجادها الغابرة وقيمتها التاريخية والمادية والمعنوية لتتمكن هي الاخرى من البروز على مسرح الحركة القومية الحديثة التي جرفت غيرها من الامم .

دور الشام والعراق في الحركة العربية الحديثة

وهكذا يمكن ان يقال ان المسرح الاول الذي ظهرت عليه هذه الفكرة بارزة المعالم بثوبها الجديد كان اوساط العرب في بلاد الدولة العثمانية ، وخاصة في اوساط العرب الشاميين والعراقيين ، وبنوع أخص اوساط شبانهم ومتنوريهم التي تأثرت تأثراً مباشراً باعلان الدستور وحركة الترك القوميين ونياتهم وتصرفاتهم .

وقد خصصنا الشاميين والعراقيين بالذكر لان مصر وبلاد المغرب العربي كانت منسلخة عن الدولة العثمانية ومنكوبة بالاحتلال الاجنبي الذي كان يحرص كل الحرص على الحيلولة دون انتشار مثل هذه الافكار بالاساليب المتنوعة التي مرت عليها . ومصر خاصة مع اتصالها ببلاد الدولة وسرعة تأثرها اكثر من المغرب بأحداثها وتياراتها ، ومع بروز المظاهر والمعالم العربية فيها بروزاً قويا لا تكاد تشوبه شائبة ، كانت العاطفة السائدة فيها هي عاطفة الفكرة الاسلامية اولاً ، وكانت تحت تأثير معنى الكيان المصري المحلي ثانياً ؛ هذا بالاضافة الى بروز العنصر التركي والروح التركية في اوساطها العليا بروزاً من شأنه ان يحول قليلا او كثيراً دون التنبه للفكرة القومية العربية والجري في مضمارها ، وبالاضافة كذلك الى ما كان في اسلوب

الاستعمار الانكليزي وجهده في ابقاء مصر بعيدة عن مثل هـذه التيارات ومنطوية في كيانها المحلي ، ومراقبة كل المراقبة في خطواتها العلمية والاجتماعية والسياسية .
اما سكان جزيرة العرب ونعني الحجازيين والنجديين واليمنيين وغيرهم فقد كان اتصالهم بأحداث العالم العربي وتياراته ضعيفاً بصورة عامة من جهة ، وكانت حالتهم الثقافية والاجتماعية ومنازلهم الجغرافية لاتساعد على تأثرهم بالفكرة تأثراً ايجابياً سريعاً وقوياً من جهة اخرى ، باستثناء من كان من اهل هـذه التيار في الاستانة وفي بلاد الشام والعراق حيث تأثروا بها كما تأثر اخوانهم الشاميون والعراقيون ، ثم لم يلبثوا أن قاموا معاً بدور خطير من ادوارها اثناء الحرب العالميـة الاولى . وهذا ينسحب كذلك على من كان في الاستانـة من شباب المغرب العربي ومصر حيث تأثروا بالفكرة واشترك بعضهم في ادوارها قليلا او كثيراً ، ومنهم من قام بدور بارز فيها كعزيز علي المصري .

- ٣ -

ادوار الحركة

ولم يشذ سير الفكرة عن ناموس النشوء والتـــدرج العام حسب الظروف والعوامل المتنوعة . فالفكرة في ثوبها الجديد طارئة ، وفي ظروف كان العرب على نسبة كبيرة من الضعف والتفكك والغفلة والجهل ، والاستغراق في معنى الوحدة الاسلامية والاخوة التركية ، وكان لا بد من ان يمر عليها ادوار حتى تصبح سائغة مفهومة وواسعة الانتشار .

ومع ذلك فقد كان لقوة عناصر القضية العربيـــة مفعولها في تقصير امد هذه الأدوار ، كما ان نشوب الحرب الكبرى ومسارعة العرب الى اغتنام فرصتها وقيامهم بدور خطير فيها كان له اثر غير يسير في ذلك ايضاً .

والمتمعن في سير الحال يرى ان الفكرة قد مرت في عهد الدولة العثمانية في ثلاثة ادوار .

الدور الاول ومظاهره ومداه

ففي الدور الاول الذي امتد نحو اربع سنين ١٩٠٨ – ١٩١١ أخذت الفكرة تنتشر في اوساط الشبان المتنورين والسياسيين العرب . غير انها لم تكن مفهومة فهما صحيحاً في اول الامر إلا من فئة محدودة منهم . اما عند اكثرهم فقد كانت صورة مبهمة وخطوطاً غامضة من جهة ، وقاصرة على اصلاحات وحقوق محلية في صدد اللغة والوظائف والمرافق الثانوية ضمن نطاق الحكم العثماني والاخوة التركية العربية او ما كان يسمى حينئذ بالجامعة العثمانية من جهة اخرى .

على ان من الحق ان يقال ان منهج الاصلاحات المحلية والنهوض بالبلاد العربية لغة وعمراناً وتعليما وصناعة وزراعة وتجارة في نطاق الجامعة العثمانية كان منهجاً عاماً سارت عليه جميع الفئات التي اعتنقت الفكرة او صارت تلوكها حتى تلك الفئة القليلة الفاهمة ، وفي الدور الاول والدور الثاني من الادوار الثلاثة التي مرت فيها الفكرة والحركة العربية من بعد الدستور الى اواسط الحرب العالمية الاولى ؛ لان ظروف العرب الخاصة والعامة والسياسية والثقافية والمادية لم تكن لتساعد على غير هـذا المنهج في هذين الدورين ، وكان هو المنهج الذي يتّسق مع طبيعة الواقع ، والذي تبدو ضرورته الملحة بارزة لجميع الفئات .

البلاد العربية قبل الدستور

ولقد كانت شؤون الولايات العربية وغير العربيـة جميعها صغيرها وكبيرها ، تافهها وخطيرها منوطة بالعاصمة ، وكان هـذا مما يقوم عثرة كأداء في سبيل ترقية الشؤون المحلية المتنوعة في بلاد مثل بلاد الدولة مترامية الاطراف، ومسكونة من عناصر مختلفة . وفي البلاد العربية كان التعليم في المدارس المتوسطة وما فوقها باللغة التركية حتى ان لغة تعليم « اللغة العربية » نفسها كانت اللغة التركية ، حيث كان يدرس في المدارس المتوسطة وما فوقها كتب موضوعة بالتركية ومطبوعة في الاستانة لتعليم اللغة العربية من نحو وصرف وادب اسوة بمدارس البـلاد الاخرى المسكونة بالاتراك او الـلاف او البوشناق او الارناؤوط او الشركس او الكرد.

ومن اغرب ما كان يقع وابشعه ارسال معلمين من غير العرب لتعليم اللغة العربية في مدارس البلاد العربية مما لاتزال آثاره باقية الى الآن في اسلوب المخضرمين تكلماً وكتابة. وكان كثير من الموظفين في هذه البلاد حتى في اتفه الوظائف كتوزيع البريد وتعمير خطوط البرق وكتابة الديوان وضباط الدرك ومفوضي الشرطة وتسجيل النفوس، وجباية الضرائب من غير العرب الذين لا يعرفون لغة البلاد مما كان فيه تعطيل للمصالح وخلق للمشاكل. وكانت لغة المحاكم والدوائر الحكومية المتنوعة هي التركية مما كان يزيد في تعقيد اعمال الناس، فضلا عما فيه من عوامل جمود اللغة العربية وعقمها. وكان ابناء البلاد يذهبون لقضاء خدمتهم العسكرية المعتادة الى غير البلاد العربية ومنها ما هو ناء جداً احياناً فيشقون ويضنون وتنقطع الصلة بينهم وبين ذويهم؛ وكان كثير من اصحاب الاهلية والثقافة من ابناء العرب يرسلون موظفين وضباطاً الى غير البلاد العربية ومنها ما هو ناء جداً فتحرم بلادهم من خدمتهم لها، وكانت القوانين والانظمة واللوائح تصاغ في الاستانة على وتيرة واحدة وترسل للتنفيذ الى الولايات دون ان يراعى فيها ظروف البلاد الخاصة فيكون من جراء ذلك مشاكل وتعقيدات ومفارقات. وكل هذا كان عاملا في جمود الحركة العمرانية والثقافية وفي فساد جهاز الدولة وشلله، وفي بؤس البلاد العثمانية بوجه عام.

- ٤ -

جمعية الاخاء العربي

وفي الدور الاول من الادوار الثلاثة بل في أوله وعقب اعلان الدستور بمدة وجيزة انشأ بعض سياسيي العرب في الاستانة جمعية الاخاء العربي وجعلوا غايتها: السعي لاعلاء شأن الامة العربية وتحسين احوالها وتقوية كيانها، والتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي في النهوض بكيان الدولة عامة. وكان شفيق المؤيد الدمشقي من ابرز شخصيات هذه الجمعية والقائمين بها، وكان من القائمين معه بها عارف المارديني وشكري الايوبي وصادق المؤيد وشكري الحسيني، والاخير مقدسي؛ وقد اصدرت الجمعية جريدة باللغة العربية تنطق بلسانها وتحمل اسمها.

ومع ان هذه الجمعية لم تعمر طويلا ، ولم تقم بنشاط مؤثر في مجال المنهج الذي رسمته عدا بعض حفلات لاستقبال نواب العرب فإنها سجلت من دون ريب حقيقة بدء بروز الفكرة القومية بمعالمها الواضحة في هذا الدور ، وتحفز العرب للانتفاع بالافق الذي فتحه اعلان الدستور أمامهم ، والنهوض بكيانهم القومي . وفي اسم الجمعية وغايتها توكيد لما قررناه آنفاً من صفة الحركة القومية ومداها في هذا الدور.

طلاب العرب في الاستانة وأثرهم

ولقد كثر في هذا الدور عدد طلاب العرب في الاستانة فأدى ذلك الى اتساع نطاق الفكرة والتحمس لها،حيث كان امكان للتكتل حولها ، وتبادل الاحاديث في صددها بين ابناء مختلف البلاد العربية ، وحيث اتسعت دائرة احتكاك شبان العرب بشبان الترك من جهة واتسعت دائرة الاتصال بالحركة السياسيه العامة التي كانت في الاستانة زاخرة التيار من جهة اخرى .

ولقد كان شباب العرب في كل سنة يروحون الى بلادهم فكان في ذلك فرصة ومجال لتبادل الاحاديث وتنبه الاذهان الى الفكرة في اوساط الشبان وغيرها من الاوساط النيرة بالجملة وانبثاثها .

المنتدى الادبي وأثره

وقد اوحت كثرة الشبان والحركة السياسية العامة في الاستانه واتساع دائرة انتشار الفكرة العربية ونشاطها انشاء ناد عربي، فانشيء المنتدى الادبي عام ١٩٠٩، فكان في انشائه سد للفراغ الذي بدا من توارى جمعية الاخاء عن المسرح . ولقد نجحت حركته الى حد كبير ، وظل يزدهر وينشط في سبيل الفكرة والحركة القومية واهدافها الى سنة ١٩١٥ حيث اغلقته السلطة الحكومية الاتحادية نتيجة لتجهمها الذي بدا بعد اعلان الدستور بقليل واشتد بعد اعلان الحرب العالمية الاولى اشتداداً مبيناً للقضاء على الفكرة والحركة العربية والقائمين بها . ولعله كان من اهم

مظاهر نشاط الحركة العربية ومغذياتها في الدوون الاول والثاني ومن اهم عوامل ازدياد ذلك النشاط واتساع دائرة الفكرة والتكتل حولها . فانه لم يلبث ان غدا بيتاً عربياً في العاصمة يلتقي في ابهائه وغرفه ومجالسه وحفلاته ابناء العرب في الاستانه من نواب وطلاب وسياسيين وموظفين وزوار فيتبادلون احاديث الفكرة ويبحثون في خير الطرق والوسائل للانتفاع بالدور الجديدالذي انفتح بابه لهم حركة ويقظة واصلاحاً ، ودرء ما يمكن ان يحدق بالكيان العربي من اخطار ما كانت تستهدفه الحركة القومية التركية من الاستعلاء العنصري في الدولة، ومركزاً للحركة والنشاط والدعاية القومية ، وبيئة تعمل على التذكير بالامجاد العربية والحقوق العربية ، ويتردد فيها اصداء مايكون بين شبان العرب وشبان الترك ، ورجالات العرب ورجالات الترك من مواقف ومناظرات وجدل ومهاترات في صدد الكيان العربي والحقوق العربية ، فيزداد مرجل الحماس العربي غلياناً ، ويشتد تعلق الشبان بالفكرة وتتضح معالمها واهدافها في اذهانهم .

وتأسيس المنتدى بعد جمعية الاخاء وما كان من جيشان الفكرة العربية في شباب العرب ينطوي فيهما كما هو واضح سرعة استجابة العرب ووعيهم الى الفكرة العربية والحركة بسبيلها .

وقد اصدر المنتدى مجلة باسمه كانت مجال اقلام ونفثات شبان العرب وعلمائهم وشعرائهم وادبائهم في كل ما له صلة بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها وامانيها ، وبالتالي مظهراً من مظاهر الفكرة ودعامة من دعائم حركتها . وعلى صفحات هذه المجلة نشرت اولى القصائد والاناشيد التي تشيد بأمجاد العرب وتعرب عن امانيهم ، والتي كان شبان العرب يرددونها ويتغنون بها في اجتماعاتهم الخاصة والعامة .

وقد كان عبد الكريم الخليل العاملي من ابرز الذين اضطلعوا بعبء المنتدى وحركته ، وقد اختير رئيساً له ، وكان شخصاً نشيطاً وداعياً قومياً قويا . وقد كان بروزه على مسرح المنتدى مؤدياً الى بروزه في مجال السياسة العربية العليا ، وكانت له اتصالات برجال السياسة العربية والتركية في صدد الحركة العربية ، واتصل بجمال الطاغية في من اتصل بهم . غير ان هذا مكر به لبعض مآربه فمد له ثم بطش به مع من بطش بهم من شباب العرب ورجالاتهم وممن كان يقوم بأعباء المنتدى وحركته ومجلته معه رفيق رزق سلوم الحمصي وجميل الحسيني المقدسي وعاصم بسيسو الغزي ويوسف سليمان حيدر البعلبكي وعزة الاعظمي البغدادي . وقد كان بعض نواب العرب ورجالاتهم وخاصة عبدالحميد الزهراوي الحمصي وشكري العسلي الدمشقي يدعمون حركة المنتدى وحياته بما اسبغ عليه قوة وحيوية .

الكتلة النيابية العربية ومغزاها

ومما كان في اخريات هـذا الدور أن استطاع الفريق النشيط من نواب العرب جمع سائر نواب العرب في كتلة نيابية عربية ، حيث تألف منهم في شهر آذار عام ١٩١١ حزب نيابي عربي للدفاع عن حقوق العرب في مختلف انحاء المملكة العثمانية بقطع النظر عن الوانهم الحزبية الاخرى ومقتضياتها . وهكذا سجلت هذه العزمة تطوراً في الحركة العربيـة على مسرح سياسي رسمي وخطير اندمج فيه وجالات العرب السياسيون البارزون الذين كانوا يمثلون مختلف الولايات العربية العثمانية من شامية وعراقية وحجازية ويمنية . وكان من ابرز القائمين بهذه الحركة الخطيرة المدى والمغزى شكري العسلي وعبد الحميد الزهراوي وشفيق المؤيـــد ورشدي الشمعة الدمشقي وسليم سلام البيروتي وروحي الخالدي وسعيد الحسيني المقدسيّان .

ولقد كان هـذا التطور ذا أثر قوي في قوة مركز العرب وبروزهم ، وكان له صدى في نفوسهم وفي نفوس رجالات الترك ، وكان يحدث احياناً في سياقه تشاد بين نواب العرب ونواب الترك الاتحاديـين في صدد حقوق العرب وكيانهم ، حتى كان ذلك الحادث الخطير من تشاد بين شفيق المؤيد وطلعة احد كبار رجال الاتحاد والترقي على ما بقي في الذاكرة نتج عنه صفعة شديدة من يد شفيق على وجه هذا الكبير الذي حاول ان ينال من كرامة العروبة ورجالاتها .

- ٥ -

الدور التالي

ولم يمض على هذا النشاط إلا ثلاث سنين حتى انتقل إلى دور خطير وهو تأسيس الجمعيات السرية من ناحية ، وبروز حركات سياسية عربية عملية واسعة الشمول نوعاً ما من ناحية أخرى . وهذا هو الدور الثاني من الأدوار الثلاثة . وقد امتد نحو اربع سنين أيضاً ١٩١٢ – ١٩١٥ م .

مغزى التشكيلات السرية

وتأسيس الجمعيات السرية العربية يعد كما هو واضح مظهراً خطيراً من مظاهر سرعة تطور الفكرة العربية ورسوخها . فالحديث حول الفكرة العربية والحقوق العربية ضمن نطاق الجامعة العثمانية ، وفي إطار الاصلاحات المحلية لم يكن مسدود المجال بعد حتى يضطر العرب الى التكتم والتستر في هذا المجال ، وهـذا يعني أن الفئات التي أسست هذه الجمعيات استهدفت أهدافاً أبعد مدى وأشد خطورة من ذلك حيث رأت أن تعمد الى التشكيلات السرية على نمط الجمعيات السرية القومية الأوروبية بل والتركية الأولى ، التي اتخذت هذا السبيل للنضال في سبيل الوحدة أو الاستقلال أو كفاح الطغيان القائم . ومن الممكن أن يكون من الدوافع إلى ذلك ما أخذ يبدو من رجال الاتحاد والترقي وشبابهم وأنديتهم ومنظماتهم من تجهم للحركة العربية أخذ يشتد يوماً بعد يوم ، وما كان في سبيلها مـن نشاط الشباب العربي وحماسهم للفكرة والاشادة بأمجاد العرب والتنبيه الى حقوقهم وكيانهم ، وما كان من تكتل النواب واتساع دائرة الوعي في أوساط العرب النيرة في الآستانة والبلاد الشامية والعراقية . فأحـرار العرب وشبانهم في الآستانة رأوا في ما لحوه نذر شر حملتهم من جهة على التحفظ والتكتم ورأوا في ما كان مـن استهـداف الترك القوميين للاستعلاء العنصري واستهتارهم بالعرب وحقوقهم ، وهيمنتهم المتزايدة على الدولة بوادر خطر حركت فيهم مـن جهة اخرى العزيمة على التفكير بخطوات وغايات قومية بعيدة المدى درءاً للأخطار ، وحفظاً للكيان العربي ، وتحقيقاً لما أخذت تصبو إليه نفوسهم من أمجاد قومية .

ولقدكان شيء من هذا باعثاً على بروز الحركات السياسية العربية العملية أيضاً ، حيث رأى متنورو العرب من نواب وغير نواب وشبان وكهول وشيوخ أن سير الاتحاديين على الطريقة الحزبية والعنصرية والاستهتارية خطر عـلى كيان العرب ولغتهم ومصالحهم وحقوقهم المختلة حملهم على الاقدام على تلك الحركات التي سيجيء الكلام عنها بعد قليل .

على أن شدة وطأة الاتحاديين وهيمنتهم على مختلف شؤون الدولة وتسيير دفتها على الوجه الذي ذكرناه حركت في ذات الوقت فريقاً مـن الترك المتنورين ايضا ، وحملتهم على تشكيل حزب معارض سموه حزب الائتلاف ، وجعلوا مـن غاياته

السير على سياسة تتسع للحقوق والأماني المعتدلة للأتراك وغير الأتراك ضمن الجامعة العثمانية . ومن الجدير بالتسجيل أن هذا الحزب قد قوبل بالارتياح في الاوساط التركية المحافظة وفي أوساط العناصرغير التركية، وأن فريقاً من متنوري العرب قد انتسبوا إلى هذا الحزب وانشأوا له فروعاً في بعض المدن العربية ، ووقفوا منه موقف المؤيد المناصر ، لأنه يتسق مع الرغبة التي انبثقت في اوساط العرب عامة في الاصلاحات المحلية ضمن نطاق الجامعةالعثمانية ، وعدم بقاء المركزيةالشديدة ومعارضة ما بدا من الأتراك القوميين من هدف الاستعلاء العنصري ، وأنه كان له أثر إيجابي في إقدام من أقدم من رجالات العرب على تلك الحركات السياسية العملية .

- ٦ -

وليس من الممكن إحصاء جميع التكتلات السرية العربية ، فقد تعددت المحاولات في هذا الميدان . ولقد عرفت وذكرت أسماء عديدة كالجمعية القحطانية وجمعية العلم الأخضر وجمعية العهد وجمعية العربية الفتاة . غير أن أهمها وأدومها وأكثرها بروزاً في الحركة العربية الأثنتان الأخيرتان .

الفتاة والعهد

وقد أسس الفتاة شبان شاميون وعراقيون كانوا في باريس يدرسون في معاهدها العالية سنة ١٩١١ منهم محمد رستم حيدر البعلبكي وعوني عبد الهادي النابلسي وجميل مردم الدمشقي ومحمد المحمصاني البيروتي وعبد الغني العريسي البيروتي ورفيق التميمي النابلسي وتوفيق السويدي البغدادي . أما العهد فقد كان الداعي إلى تأسيسها عزيز علي المصري وكان من اوائل المنضمين أليها طه الهاشمي ونوري السعيد البغداديان.

ولقد كانت الفتاة عامة ، أي إن المتخرطين فيها كانوا مزيجاً من مدنيين وعسكريين رشبان وكهول ، في حين كان العهدمنحصراً في نطاق الضباط تقريباً ولم يكن فيه إلا أفراد معدودون من المدنيين . وكانت كلتاهما شاملة من ناحية

أن اعضاءهما مزيج من مختلف أبناء البلاد العربية ، ومن ناحية أن الهدف الذي استهدفناه هو مصلحة العرب القومية عامة .

والنقطتان الأخيرتان جديرتان بالتنويه من حيث التسجيل التاريخي وعموم الفكرة العربية . ولقد كان هذا وذاك طبيعياً يومئذ . فالشبان العرب الذين اعتنقوا الفكرة واخذوا يسيرون في سبيلها في هذا الاتجاه البعيد المدى لم يكونوا يشعرون بالمعنى الاقليمي في صددها ، ولم يكن شعورهم إلا في جو أمة واحدة في كيان واحد . ومن الحق أن نقول إن هذا المعنى كان شاملاً جميع الحركات التي قام بها العرب والجمعيات العربية التي انشأوها في عهد الدولة العثمانية ، وأن النشاط ضمن النطاق الاقليمي إنما هو مظهر من مظاهر ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وأثر من آثار الاستعمار الأجنبي . وهذا يتسق مع المعنى الذي قررناه في صدد عناصر القضية العربية والهدف الذي تستهدفه الفكرة العربية الحديثة إطلاقاً ، ثم مع الهدف الذي استهدفه وما يزال يستهدفه العرب القوميون منذ ذلك الحين إلى الآن ، والذي يعد ما كان من عثرات في سبيله وجنوح عنه طارئاً غير أصيل في الفكرة العربية الحديثة حين انبعاثها .

وتشكيل جمعية العهد العسكرية خاصة له معنى بارز في صدد ما قلناه من تطور الفكرة واتجاهها اتجاهاً أبعد مدى وأشد خطورة من الاصلاحات المحلية الثانوية . ففيه معنى العزم على خطوات جديدة عملية والاستعداد للانتفاع من الفرص السانحة والمناسبات المواتية . وفعلا فقد سارع من استطاع من ضباط العهد الشاميين والعراقيين وفي مقدمتهم عزيز علي المصري ونوري السعيد ومولود مخلص وجميل المدفعي العراقيين الى الالتحاق بالثورة العربية الكبرى وأبلوا البلاء الحسن في تنظيم كتائبها وتسيير حملاتها .

منهج النشأة وتشكيلاتها

ولقد سارت الجمعيات السرية في سبيل ضم الصالحين إليها واختبارهم واختيارهم على اسلوب ينطوي فيه ذلك المعنى البارز أيضاً ، حيث كان القائمون بها يتحفظون كل التحفظ ، ويتكتمون كل التكتم في أمر وجودها أولا ، وفي مفاتحة من يقع عليهم الاختيار لضمهم اليها ثانياً بالرغم من كثرة الذين كانوا يظهرون الحماس للفكرة والاندفاع فيها، ثم في أمر اتصالهم باخوانهم في صدد ما أخذوه على عاتقهم

من واجبات ثالثا .

وكانت جمعية الفتاة مثلاً تحرص حرصاً شديداً على أن لا تضم اليها الامن عرف بحسن الخلق والأمانة والكتمان وقوة النفس والجرأة بالاضافة إلى التشبع بالفكرة القومية والتحمس لها . وكان العضو يرشح من قبل خبير به منتسب إلى الجمعية سابقاً . فاذا لم يكن في الهيأة من يعرف له صفات خطرة أو أخلاقاً ضعيفة أحيل « للدرس » فتدرس أحواله من قبل شخص غير الذي رشحه ، ويختبر بالمحادثة ويسأل عنه معارفه بشتى الاساليب ، فاذا أسفر الدرس عن الاقتناع بأهليته أحيل « للمفاتحة » فيفاتح باساليب متنوعة يكون المتكلم فيها متحفظاً قادراً على التراجع وسد الباب دون أن يترك مجالاً لاكتشاف وجود الجماعة فعلاً او الاحساس بها ، فاذا أسفرت المفاتحة عن الايجاب أعطيت له تفصيلات قليلة ثم دعي إلى «اليمين» على الاخلاص لمبدأ الجمعية الذي كان « بذل كل جهد لايصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة والمستقلة الكبرى » ثم على التضحية في سبيله بالنفس والمال ، وكتمان اسرار الجمعية والطاعة لأوامر هيئتها المسئولة . ويكون كل ما عرفه العضو المنضم بعد هـذا هو اسم الجمعية والشخص أو الشخصين اللذين فاتحاه نهائياً وحلفاه اليمين . فاذا اريد ابلاغه أمراً أو خبراً أو انتدابه لمهمة أبلغ بواسطة أحدهما أو بواسطة مأمونة اخرى . ثم يكون شأن هذا العضو في الجمعية وميادين العمل تحت رايتها رهنا بما هو عليه من نشاط وفتور وقوة شخصية وضعفها ، وبما يقوم به ، من مهمات ويبدو منه من سعي في سبيل المرمى والمدى .

ومن الجدير بالتسجيل أن أسماء الجمعيات السرية الاخرى واسماء كثير من أعضائها قد انكشفت في سياق تحقيقات الديوان الحربي في عاليه - لبنان - الذي أنشأه جمال الطاغية في اثناء الحرب بسبيل القضاء على الحركة العربية ٩١٥ - ٩١٦ ولم يمكن كشف اسم الفتاة بالرغم عن شدة المحاولات والارهاقات ، وبالرغم عن ان نخبة من اعضائها اعتقلوا وشنقوا في هذه البلوى . ومما لا ريب فيه ان هذا أثر من آثار اسلوب الاختبار والاختيار والذمم والتكتم الذي سارت عليه ، ولقد كان من أثر هذا ان أقدم شكري القوتلي احد اعضائها على الانتحار حينما اعتقل ، وشدد عليه بسبيل الوقوف على ماعنده من أسرار الجماعات السرية مفضلاً الموت على الافشاء فقصد عرقه وسال الغزير من دمه ثم أدرك في آخر لحظاته وخفف الضغط عليه .

وبهذا الاسلوب الذي كان في الوقت نفسه يسبغ عـلى الجمعية ثوب الهيبة والخطورة والقوة ، ويحمل الملتحقين بها عـلى الفناء فيها والمجازفة في أداء ما يعهد أليهم من مهامها وكتمان أسرارها مهما تعرضوا له مـن محن وأخطار استطاع القائمون بجمعيتي الفتاة والعهد أن يضموا إليهم نخبة صالحة من الأعضاء امتاز كثير منهم بمتانة الخلق وسلامة الحكم ونشاط الذهن وسعة الافق والاقدام وقوة الشخصية؛ ذهب بعضهم شهداء أعزاء في سبيل العقيدة التي اعتنقوها والمبدأ الذي أقسموا له ، وبرز اكثرهم مع الزمن حتى احتل كثير منهم الصفوف الأولى لمختلف الحركات العربية وما يزال ، وحتى استطاع بعضهم ان يقوم بأهم ادوار هذه الحركات في مختلف ميادينها ومجالاتها وما يزال . ونذكر هنا من علق بالذاكرة من أعضاء الفتاة الذين انضموا إليها منذ تأسيسها ألى نهاية الحرب العالمية الأولى ليرى القارىء مصداق ما قلناه :

عبدالغني العريسي بيروت. الأميرعارف الشهابي دمشق. محمد المحمصاني بيروت. محمود المحمصاني بيروت . عمر حمد بيروت . توفيق البساط صيدا . عوني عبدالهادي نابلس . رفيق التميمي. نابلس . الدكتور احمد قدري دمشق . شكري القوتلي دمشق. معين الماضي حيفا . جميل مردم دمشق . فخري البارودي . ياسين الهاشمي بغداد . فيصل بن الحسين . زيد بن الحسين . نسيب البكري دمشق . فوزي البكري دمشق . سامي البكري دمشق . مولود مخلص بغداد . جميل المدفعي بغداد علي جودة الأيوبي بغداد . تحسين قدري دمشق . زكي التميمي نابلس . محمد عـلي التميمي نابلس . محمد رستم حيدر بعلبك . سعيد حيدر بعلبك . يوسف سليمان حيدر بعلبك . إبراهيم حيدر بعلبك . رشيد الحسامي لبـنان . محب الدين الخطيب دمشق. بهجة الشهابي دمشق . اسماعيل الشهابي دمشق. فائز الشهابي دمشق. توفيق الناطور بيروت . بشير القصار بيروت . بشير النقاش بـيروت . كامل القصاب دمشق . رضا الركابي دمشق . أحمد مريود دمشق . أحمد الحسيبي دمشق. صبحي الحسيبي دمشق. خالد الحكيم دمشق. سعيد الباني دمشق. محمد الشريقي لاذقية . رشدي الامام الحسيني القدس . رشدي الشوا غزه . سليم عبد الرحمن طولكرم .

أمين ميسر حلب . عبد الوهاب ميسر حلب . شكري الشوربجي دمشق . أسعد الحكيم دمشق . حافظ كنعان نابلس . صدقي ملحس نابلس . عزة دروزة نابلس محمد اسماعيل الطباخ دمشق . عمر الأتاسي حمص . أحمد المناصفي بيروت . توفيق السويدي بغداد . إبراهيم هاشم نابلس . محمد العفيفي القدس .

فائدة المنهج التي سارت عليه الفتاة

ولقد ظل التحفظ والتكتم طابع الجمعية القومي الى نهاية الحرب العالميـة الاولى وقيام الحكومة العربية الفيصلية في دمشق عام ١٩١٨ ، وكان من الهام هذا الطابع ان اعتبر المؤسسون الاولون انفسهم هيئة مركزية دائمة دونما انتخابات دورية حتى بعد اتساع نطاق الجمعية بكثرة المنتسبين اليها . ولما انتقل بعض اعضاء الهيأة من باريس الى بيروت احتفظ المنتقلون لانفسهم بهذه الصفة مع ضم من كان في بيروت من الاعضاء البارزين. وقد كان للجمعية في المدن المهمة معتمدون فرديون ، وكان الاتصال بين المركز والمعتمدين والاعضاء الآخرين يجري في نطاق هـذا الطابع ، حتى ان جل الاعضاء لم يكونوا يعرفون اعضاء المركز ولاالمعتمدين شخصياً. ولقد اشتد هذا الطابع بعد اعلان الحرب ودخول الدولة العثمانية فيها فعلاً بسبب اشتداد تجهم رجال الاتحـاد والترقي الذين كانوا يتولون الحكم للحركة العربية وتعقب طاغيتهم جمال الذي عهد اليه بالقيادة العامة في بلاد الشام لرجالات هـــذه الحركة واعتقال البارزين النشيطين منهم ، ومن بينهم عدد غير يسير من رجال الجمعية من اعضاء المركز وغيرهم مثل محمد المحمصاني ومحمود المحمصاني وتوفيق البساط وشكري القوتلي ورشدي الشوا ومعين الماضي وعبد الغني العريسي وعمر حمد وعارف الشهابي ويوسف سليمان حيدر وابراهيم هاشم وغيرهم .

على ان اشتداد طابع التكتم والتحفظ ، واشتداد بـــلاء الطاغية وجبروته لم يكن من شأنها ان يعطلا من نشاط الجمعية في هذه الفترة العصيبة التي امتدت نحو ثلاث سنين . ففيها غدت دمشق مركزاً لهيأة الجمعية الادارية او بالاحرى لفلولها ، وفيها انتسب عـدد غير قليل من شباب العـرب ورجالاتهم اليها ، وفيها اتصلت

بالامير فيصل فانتسب اليها في من انتسب وتبنى غايتها التي تطورت الى غاية انفصالية استقلالية نتيجة لتطور الموقف السياسي من جهة وتطور موقف الحكومة الاتحادية من العرب عامة ورجال الحركة القومية خاصة من جهة اخرى. ثم اخذ يتصل بوالده في صددها . ولما قامت الثورة العربيـة ووصلت حملة الامير فيصل مشارف الشام الشمالية قادمة من الحجاز تمكن مركز الجمعية ومعتمدوها من تسيير عدد غير يسير من اعضاء الجمعية وغيرهم والحاقهم بهذه الحملة . وقد كان الأمير فيصل قـدم للشام يمثل والده في مقر جمال في صدد الحملة المصرية ونجدة الحجاز فيها .

وكان ينزل في بيت البكري في القابون في ضواحي دمشق ؛ فاتصلت به الجمعية بواسطة فوزي ونسيب البكري اللذين انضما اليهـــا قبل وادخلته في عضويتها ، وتمكنت بعد ذلك من تحميله مهمة نقل غايات ومطالب رجال الحركة القومية الى والده ، وتصوير ما الم بالعرب من بلاء طاغية الاتحـاديين مما يبدو اثره في منشور الثورة الذي اذاعه الشريف حسين وفي رسائل الحسين - مكماهون على ما سوف نذكره بعد . وقد توسط لدى جمـال في القافلة الثانية التي حكم عليها بالاعدام من رجالات العرب ، وكان بينها عدد من اعضاء الجمعية فأخفق ، ولمح في الطاغية عين الغـــدر والشر فكان ذلـــك باعثاً له عـــلى التسرع في الافـــلات والعودة الى الحجاز حيث تمكن من خدعة جمال ونجح في عزيمته ولم تلبث الثورة ان اعلنت بعد وصوله بوقت قصير .

- ٧ -

فروع العهد ومنشوره البارزون

اما حزب العهد فقد اسس في الاستانة في خريف عام ١٩١٣ وكان الداعي اليه كما قلنا عزيز علي المصري ؛ وغايته استقلال البلاد العربية استقلالاً داخلياً تتحد مع الترك في تاج السلطان العثماني كاتحاد المجر بالنمسا على ان تبقى الخلافة العثمانية قائمة والاستانة عاصمة لها . وانشئت له فروع في بـــيروت وحلب ودمشق والموصل والبصرة ، واخذ المركز والفروع يضمون الصالحين من ضباط العرب اليه ،

وينشرون دعوته ؛ فلم يمض على تأسيسه إلا برهة وجيزة حتى امكن ضم جملة صالحة اليه منهم عدا عزيز علي المصري ونوري السعيد وطه الهاشمي ؛ ياسين الهاشمي بغداد ، مولود مخلص بغداد ، محمد اسماعيل الطباخ دمشق ، جميل المدفعي بغداد ، مصطفى وصفي دمشق ، شريف الشريف بغداد ، علي جودة الايوبي بغداد ، حميد الشالجي البصرة ، سليم الجزائري دمشق ، خالد الحكيم دمشق ، يحيى كاظم دمشق ، عارف القوام دمشق ، محي الدين الجبان دمشق ، صادق الجندي حمص ، امين لطفي الحافظ دمشق ، علي النشاشيبي القدس ، اسماعيل الصفار بغداد ، عبد الله الدليمي بغداد ، تحسين علي بغداد ، عبدالقادر سري دمشق ، علي رضا الغزالي دمشق ، رشيد الخوجه بغداد ، حمدي الباجه جي بغداد ، مزاحم الباجه جي بغداد .

ولقد ذكر صاحب كتاب الثورة العربية الكبرى أن عدد المنتمين إليه في الأستانه كان في أوائل عام ١٩١٤ ثلاثمئة وخمسة عشر ضابطاً ولم يذكر مصدراً. واذا كان من المحتمل أن يكون الرقم مبالغاً فيه فإن المتبادر أن عدد المنتمين إلى الحزب قد بلغ رقماً غير يسير حينما نشبت الحرب العالمية الأولى .

ومما ذكره صاحب الكتاب المذكور أن حكومة الاتحاديين لم تلبث أن شعرت بأمر هذا الحزب وتحسبت من عواقبه واعتقلت مؤسسه وحكمت عليه بالاعدام ثم أخلت سبيله وأخرجته من بلاد الدولة ، وقررت نتيجة لذلك اتخاذ التدابير الحاسمة بتوزيع ضباط العرب في الأستانة إلى المناطق التركية المختلفة ، وإقصاء ضباط العرب عن مراكز القيادة في البلاد العربية ، والوقوف من الحركات العربية ورجالها موقف الشدة والصرامة : ولقد نفذوا ذلك فعلاً في الفرصة التي سنحت لهم باعلان النفير العام والدخول أخيراً في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الالمان .

- ٨ -

الحركات السياسية العلنية في هذا الدور وظروف ظهورها

أما الحركات السياسية العملية والعلنية التي برزبها العرب على المسرح في هذا الدور فهي (١) حزب اللامركزية (٢) الحركة الاصلاحية (٣) المؤتمر العربي في باريس .

ولقد كانت هـذه الحركات ذات خطورة جديرة بالتنويه في صدد الفكرة العربية القومية تتمثل خاصة في غدو الحديث عن حقوق العرب وأماني العرب متردد الصدى من قبـل جماعات مختلطة ، وبأسلوب أو صوت شعبي علني ، بعد أن كان أماني ورغبات ونفثات واصوات فردية أو تكتلات سرية ضيقة النطاق .

وقد ساعد على ظهور هـذه الحركات ظرف مهم ، وهو حرب البلقان ١٩١٢ - ١٩١٣ وخروج زمام الحكم من يد الاتحاديين وقيـام وزارة محافظة ائتلافية أي منسوبة إلى حزب الائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقي أو بالأحرى منسقة معه ، حيث اغتنم ساسة العرب ومنوروهم الفرصة فقاموا بنشاطهم وحركاتهم الثلاث المذكورة .

حزب اللامركزية ومنهجه ونشاطه

وقد تأسس حزب اللامركزية في مصر عام ١٩١٢ م وكان من أبرز القائمين به جماعة مـن سياسيي الشام مقيمون في مصر وهم رفيق العظم الدمشقي ورشيد رضا الطرابلسي والدكتور شميل اللبناني واسكندر عمون اللبناني وسامي الجريديني اللبناني وحقي العظم الدمشقي ومحب الدين الخطيب الدمشقي . وكان رفيق العظم رئيسه واسكندر عمون نائب رئيسه وحقي العظم أمين سره . وقـد سمي الحزب « حزب اللامركزية الادارية العثماني » وجعلت غايته « بيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات اجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية » ، ونص في نظامه على أن مركزه القاهرة ، وعلى جواز تشكيل فروع له في مختلف مدن وقرى الدولة العثمانية إذا ما وجد فيها عشرة يعتنقون مبدأ الحزب .

ومع أن مؤسسي الحزب عرب شاميون فإن الحزب بدا ذا صفة شاملة للبلاد العثمانية على أنه كان في الحقيقة وظل حزباً عربياً ، وأثراً من آثار الفكرة العربية ومداها . ولم تؤسس له فروع إلا في البلاد العربية ولم يندمج في حركته إلا العرب ، وإن كان وجـد قبله وبعده من يعتنق فكرته ويسعى في سبيلها من الأتراك

المحافظين" والمعارضين للاتحاد والترقي .

ولقد تمثل فيه مدى الحركة العربية الذي أشرنا إليه قبل وكان طابع هذه الحركة في دوريها الأول والثاني ونعني النهوض بالعرب وبلادهم وكفالة حقوقهم ضمن نطاق الدولة العثمانية : وكان رجاله مخلصين لهـــذا المدى إلى أن كشر الاتحاديون عن نابهم للعرب وأخذوا يبطشون برجالاتهم عامي ١٩١٥ - ١٩١٦

وقد نشط الحرب للتشكيل والتوسيع والدعاية فكان من أثر ذلك أن انضم إليه رجالات بارزون من سياسي العرب ونوابهم ومتنوريهم ، وان أخذ اسمه يتردد ودعوته تنتشر ، ويملأ فراغاً غير يسير في الحركة العربية ، وان تأسست له فروع عديدة في المدن العربية في الشام والعراق ؛ وظل هذا النشاط إلى ان ثارت الحرب العالمية ، واندمجت فيها الدولة العثمانية .

ومن الجدير بالذكر انه بالرغم عن ان الحزب لم يكن خفياً ، ولم يكن فيه ما يعد من الأسرار ، وبالرغم عن إعلان نظامه والدعوة اليه جهرة فإن فروعه التي تأسست في بلاد الدولة العثمانية قد تأسست دون تسجيل وترخيص حكوميين ، وكان نشاطها واتصالها بالمركز العام يجريان بشيء من التحفظ والتكتم . ويرجع هذا الى ما بدا من الاتحاديين الذين عادوا إلى الحكم مـن اشتداد التجهم للعرب بسبب مطالبهم ومطامحهم القومية . وقد كانوا يرصدون حركات الحزب ونشاطه . فلما ساروا في خطوتهم التعسفية الباغية أثناء الحرب عن يد جمال كان رجال الحزب من اهداف تنكيلهم الشديد .

- ٩ -

الحركة الاصلاحية البيروتية ونشاطها

اما الحركة الثانية أي الحركة الاصلاحيه فقد قامت في بيروت . ولعلها صدى من أصداء دعوة اللامركزية أو بادرة استجابة اليها كما يبدو مـن طابع مطالبها ومنهجها وتاريخ ظهورها . وقد بدأت باجتماع بعض أعيان المسلمين والمسيحيين البيروتيين بالوالي أدهم بك الذي لم يكن اتحادياً ؛ وكان ذلك في اواخر سنة ١٩١٢م، حيث بينوا له ضرورة اصلاح الجهاز الأداري في الدولة . ورفع هذا الأمر

للصدر الاعظم كامل باشا الذي خلفت وزارته وزارة الاتحاديين على ما اشرنا اليه قبل . فأجاب هذا بطلب تقديم المنهاج الاصلاحي الذي يرتئيه الأعيان . وحينئذ اجتمع جمع كبير من هؤلاء في بلدية بيروت في آخر شهر كانون الثاني من سنة ١٩١٣ ووضعوا المنهاج المطلوب وسلموه الى الوالي الذي ارسله بدوره الى العاصمة. وكان منهاجاً مفصلا او بالأحرى مشروع دستور او قانون . وقد ارتكز على مبدأ اللامركزية الادارية والمحلية بحيث يبقى ما يتعلق بكيان وسلطان الدولة وشؤونها الأساسية والعامة من خارجية وعسكرية وتشريعية واقتصادية في يد العاصمة ويدخل في ذلك تعيين رؤساء الدوائر العليا ، وتكون الامور المحلية من تعليم وزراعة وصناعة وتجارة وعمران وطرق واوقاف من اختصاصات سلطة الولاية . وقد تضمن المنهاج ايجاب معرفة رؤساء الدوائر اللغة العربية ، ووجوب تعيين سائر الموظفين من ابناء البلاد ، وقضاء ابناء البلاد خدمتهم العسكرية المعتادة في داخل ولايتهم ؛ واعتبار اللغة العربية لغة رسمية في جميع معاملات الدولة في الولاية ، وفي مجلس البرلمان ايضاً ، وتشكيل مجلس تمثيلي للولاية يتمتع بصلاحية واسعة للقيام بمهمته ، وعيّن ما يجب ان يخصص لميزانية الولاية من إيراد . وفي جملة ما احتواه المنهاج ايجاب تعيين مستشارين اجانب لدوائر الولاية من رعايا الدول التي ترضاها الحكومة المركزية ، وتشكيل مجلس استشاري من هؤلاء المستشارين منضماً اليهم رئيس المجلس التمثيلي .

وكان احمد مختار بيهم وسليم سلام وايوب ثابت من ابرز القائمين بهذه الحركة التي كان لها صدى قوي في مختلف الأنحاء الشامية وفي بعض الأنحاء العراقية ، حيث ابرقت برقيات التأييد للمطالب من الشخصيات البارزة والشبان القوميين في الشام ، وحيث ايدها الزعيم العراقي طالب النقيب وفريق من احرار العراق وشبابه

- ١٠ -

مؤتمر باريس ومنشأه ونتائجه

واما الحركة الثالثة اي مؤتمر باريس فقد انبثقت فكرته في اوائل عام ١٩١٣ في ذهن بعض شباب العرب فيها نتيجة على ما يبدو لاحتكاكهم بالغرب ووجودهم

في محيط أكثر حرية واوسع مدى . وقد حفزتهم حالة الدولة العثمانية وما لمسوه من مطامع الغرب فيها ونيات الترك الاستعلائية إلى التجمع والتشاور مع سائر زملائهم ومواطنيهم في باريس وكان عددهم كبيراً يبلغ الثلاثمئة فاتفقوا على وجوب الدعوة الى مؤتمر عربي عـــام يعقد في باريس لبحث الشؤون المتصلة بمركز الأمة والبلاد العربية في الدولة العثمانية ومعالجـة اسباب وفايتها ونهوضها ؛ واختاروا لجنة تحضيرية مؤلفة من عبد الغني العريسي وعوني عبد الهادي وجميل مردم ومحمد المحمصاني وندرة المطران وشكري غانم وشارل دباس وجميل المعلوف تأخذ على عاتقها الاتصال بالهيئات والشخصيات العربية بسبيل عقد المؤتمر وزمنه ومنهاجه . والاربعة الأولون من مؤسسي جمعية الفتاة او بالاحرى اكثرية اعضاء هـــذه الجمعية في باريس مما يسوغ القول إن للجمعية نصيباً كبيراً إن لم يكن النصيب الأكبر في هذه الحركة .

وقد كانت هذه الحركة اهم الحركات الثلاث مدى ومظهراً وخطورة ودلالة على ما بدا من الفئات العربية النيرة من حيوية ونشاط في سبيل الفكرة العربيـة والخروج بها الى مسرح السياسة العالميـــة ، كما انها كانت اقوى اثراً وصدى من الحركتين السابقتين على ما سوف نشير اليه بعد . ومع ذلك فمن الحق ان تقيد انها كانت صدى من جهة ومتممة من جهة أخرى للحركتين السابقتين كما انها جرت في مجراهما من حيث الرغبة في البقاء في نطاق الـدولة العثمانية مع اصلاح جهازها على قاعدة اللامركزية ، والنهوض بالامة والبلاد العربيـة داخل كيانها ؛ وهو النطاق او المنهج الذي لم تكن ظروف العرب واطوار حركتهم تسمح او تدعو الى الانحراف عنه .

وكانت اولى خطوات اللجنة التحضيرية الاتصال بمركز حزب اللامركزية العام في القاهرة، وعرضها عليه تبني المؤتمر ورآسته على اعتبار ان الاصلاح الذي سيطالب به سيقوم على منهج الحزب . ولعل الباعث على ذلك ان الداعين كانوا شباناً وطلابا وكان حزب اللامركزية يضم رجالا بارزين ، وكانت دعوة الحزب تتردد في البلاد العربيـــة في اوساط واسعة نسبياً ؛ فرأت اللجنة ذلك من عوامل نجاح المؤتمر والانتهاء به الى نتائج ملموسة . وقد وافق المركز على العرض ، وحينئذ اذاعت اللجنة بياناً على العالم العربي في بلاد الدولة العثمانية وفي المهاجر جاء فيه :

« إن مناظرات الاجانب ومغامزات الساسة العامة قـــد اوقفتنا على استقراء ما يجرى بشأن البلاد العربيـــة وخاصة زهرة الوطن سورية ، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لا يعلم ان ذلك نتيجة سوء الادارة المركزية . فحدا بنا ذلك الى الاجتماع في هـذه المدينة والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقايـة الارض المترعة بدم الآباء ورفات الاجـداد من عداء الاجانب وانقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد واصلاح أمورنا الداخلية على اساس ما يتطلبه اهل البلاد من قواعـد المركزية حتى يشتد بها ساعدنا وتستقيم قناتنـــا فينقطع بذلك خطر الاحتلال او الاضمحلال وتنتفي مذلة الرق وتخفت نأمة الاستعباد ويظهر للاعبين بحياة الشعوب اننا امة تأبى الضيم ولا تستسلم للذل . وبعد المداولة تقرر عقد مؤتمر للعرب يقوم به السوريون فتفد اليه وفود البلاد العربيـة والمهاجرين السوريين من مصر واميركا الجنوبية واميركا الشمالية والبلاد الاوروبية فتمثل فيه الامة العربيـة المنتشرة في اقطار الارض وتحق كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الامة في هذا المؤتمر ؛ حيث نبسط فيه للامم الاوروبية اننا امـــة متمسكة ذات وجود حي لا ينحل ومقام عزيز لا يضام وخصائص قومية لا تنزع ومنزلة سياسية لا تقرع ، ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا وان حياتنا اقـدس حق من حقوقنا وان العرب شركاء في هـــذه المملكة شركاء في الحرية شركاء في السياسة وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء انفسهم » .

ومن ثم انتخبت الجالية العربية لجنة إدارية لتقوم بالعمل فوضعت خطة المؤتمر وما سيجري فيه من المباحث على مشهد من ابناء الوطن وبعض كبار الاوروبيين وممثلي الصحف الاوروبية والاميركية . وهذه هي المسائل التي ستكون موضوع المذاكرة :

١ – الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال

٢ – حقوق العرب في المملكة العثمانية

٣ – ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية

٤ – المهاجرة من سورية والى سورية .

ومتى تمت المناقشات حمل المؤتمر قراراته الى حيث يتحتم عليها التصديق ويحق التنفيذ .

وبعد فاننا ندعو كل من يخفق قلبه لامة العرب صغيراً او كبيراً ان يابي داعي الوطن لاسيما ارباب الزعامات في مقاعد الجمعيات ، فعليهم نعتمد واليهم نتجه . فاما أن يتضامنوا إلى وفود المؤتمر واما ان يبعثوا اليه بالرسائل البرقية والبريدية يظهرون فيها ارتياحهم حتى يدلي المؤتمر بحجته وتستوثق قوته بقوة أمته . وهنالك ينبثق اليقين فيطل على هذه الامة فجر الحياة من بين طيات الغسق وركام الظلمات..

وفي نصوص البيان تأييدٌ لمـــا قلناه من ان المؤتمر تتمة وصدى للحركتين الاوليين ، ومن الحافز على اهتمام القائمين به لجعل حزب اللامركزية يتبناه ؛ كما فيها دلائل حيوية الفكرة والحركة العربية والمدى الذي وصلتا اليه في هـذه المدة القصيرة . ويبدو منها كذلك ان قضية تصفية الدولة العثمانية كانت قد اشتد الحديث حولها ، وان سورية خاصة كانت اشد عرضة من غيرهـــا لخطر الوقوع في براثن الاستعمار .

وانعقد المؤتمر في تاريخ ١٨ حزيران ١٩١٣ برئاسة عبدالحميد الزهراوي مندوب حزب اللامركزية ، وشهده مندوبون عن هـــذا الحزب وعن الجمعية الاصلاحية البيروتية ، والمنتدى الأدبي في الاستانة وبعض رجال وشباب العراق وسورية كما شهده مندوبون عن المهاجرين السوريين في اميركا بالاضافة الى اعضاء اللجنة التحضيرية التي كانت تمثل الجالية العربية في باريس . وقـد عقد اربع جلسات ، والقيت فيه محاضرات في المواضيع الاربعة المذكورة في بيان اللجنة . وقـــد قـــرر مبدأ وجوب الاصلاح العاجل في المملكة العثمانية ، وحق العرب بالمشاركة في ادارة الدولة المركزية مشاركة فعالة ، كما قرر المطالبة بالسير في ادارة الولايات العربيـة على قاعدة اللامركزية، وتأييد المطالب التي تضمنتها لائحة بيروت الاصلاحية . وقد حظر على رجال حزب اللامركزية والجمعية الاصلاحية قبول اي منصب من مناصب الدولة في حال عدم استجابة هـذه المطالب إلا بموافقة جمعياتهم ، كما جعل قراراته منهجاً سياسياً للعرب وعدم مساعدة مرشح للنيابة عنهم إلا بعد تعهده بالسير عليه .

ومع أن عدد المندوبين الذين قدموا إلى باريس لم يكن كبيراً فانهم كانوا يمثلون ـ ولو رمزياً - بلاد الشام والعراق والمنظمات العربية القومية التي اخذت تنشط في سبيل اهداف الفكرة العربية . ولقد ابرق للمؤتمر برقيات تأييدية عديدة

من مختلف انحاء الشام والعراق ايضاً ومن قبل شخصيات سياسية بارزة ، وخاصة من الذين انضموا إلى حزب اللامركزية او اندمجوا في الحركة الاصلاحية ؛ بحيث يصح ان يقال ان المؤتمر قد نجح في حركته .

ولقد حرك هذا النجاح حزب الاتحاد والترقي الذي عاد إلى الحكم ، ولكنه راعى الظروف التي خرجت الدولة فيها منهوكة القوى من الحرب البلقانية فنجح الى المداراة ، فأرسل امين سره العام الى باريس ليجتمع برجالات المؤتمر ويتحدث معهم في مطالبهم ، ويطمئنهم بحسن نوايا حزبه . وكان لقدوم الرجل اثر ايجابي حيث اتفق مع اقطاب المؤتمر على شؤون عديدة مما يطالب به العرب ، مثل جعل العربية لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، والمام رؤساء مصالح الولايات بالعربية ، وجعل هـــذه اللغة معتبرة في المعاملات الرسمية ،وإناطة تعيين الموظفين الثانويين بالولايـة وترك شؤون الاوقاف والاشغال العامة لمجالس الولاية ، وجعل مقررات المجالس العمومية وهي المجالس التمثيلية المحلية التي كان ينص على انشائها الدستور نافذة ، وقضاء ابناءالبلاد خدمتهم العسكرية النظامية في مناطق قريبة من مواطنهم ، وتعيين مستشارين فنيين من الاجانب لـدوائر الولايات الفنية كما تم الاتفاق على تعيين ثلاثة وزراء من العرب في الوزارة، وعدد آخر في مجلس الشورى ومحكمة التمييز والمشيخة الاسلامية ومصالح الوزارات الرئيسية ، وخمسة ولاة وعشرة متصرفين ، واثنين عن كل ولاية في مجلس الاعيان . ولم يلبث ان صدر مرسوم سلطاني في شهر آب ١٩١٣ فيه تثبيت لخطوط الاتفاق إجمالا .

وقد كان ذلك مما جعل سياسيي العرب يستبشرون خيراً ، فذهب وفـد من كبارهم فقدموا الشكر للصدر الاعظم الاتحادي ، وادب المنتدى مأدبة حضرها عدد من اقطاب الاتحاديين والعرب وخطب فيها خطباء مـن الطرفين مشيدين بالروابط الوثيقة التي تربط الشعبين ، واعلن بعض خطباء الاتحاديين العزم عـــلى تنفيذ الوعود المقطوعة . وقـد ابرق لأقطاب المؤتمر فقدموا الى الاستانة وقابلوا السلطان واعربوا عن تعلق العرب بعرشه ورجوا منه سرعة تنفيذ الاصلاحات ، وادب الاتحاديون مأدبة لهم تبودلت فيها الخطب كذلك ، وأكد خطباء العرب تعلقهم بالجامعة العثمانية وحسن نيتهم نحوها في ما طالبوا به من الاصلاح ، واكد

خطباء الاتحاديين حسن نواياهم نحو العرب واستعدادهم للمضي في تنفيذ ما اتفق عليه.
على ان موجة الاستبشار لم تطل . لان الاتحاديين اخذوا يسوفون، وقد كانت حرب البلقان التي كان لها أثر في ما بدا منهم من مسايرة قد انتهت . وكل ما نفذوه تعيين خمسة من رجال العرب أعضاء في مجلس الأعيان والعدد هو نصف ما اتفق عليه ، وإنشاء مدرستين ثانويتين جعلت العربية فيهما لغة التعليم ، وتوسعة في تعليم اللغة العربية في المدارس الثانوية مع بقاء تدريس اكثر المواد بالتركية .
ولقد قبل رجال العرب الخمسة الذين عينوا اعضاء في مجلس الاعيان، وكان بعضهم ممن اشترك في المؤتمر مثل عبد الحميد الزهراوي بالرغم عما تقرر من عدم قبول المناصب الا اذا اجيبت مطالب الاصلاح ، فكان لذلك صدى غير مستحب بالرغم عما قيل من ان الزهراوى قد قبل المنصب بقرار حزبه وكوسيلة للمطالبة بتنفيذ بقية الوعود ، وادى ذلك الى الخلاف بين رجالات العرب وبالتالي الى شيء من الفتور في النشاط والاستبشار الذي بدا فترة من الزمان

- ١١ -

اعلان الحرب ومحنة الحركة العربية الاولى

وقد أعقب هذه الأحداث نشوب الحرب العالمية ، واندماج الحكومة العثمانية فيها باتفاقها مع الالمان واعلانها النفير العام وحالة الطوارىء في البلاد العثمانية ورسوخ قدم الحكومة الاتحادية .
ولقد دعي الشبان المتعلمون في المدارس العالية إلى ما سمي « الخدمة المقصورة » أي التعليم العسكري الذي يتهيأون به ليكونوا ضباطاً ، ودعى الشبان العرب من هؤلاء كغيرهم بطبيعة الحال ، وكان كثير منهم مندمجاً في الحركة العربية ، فكان اجتماعهم في امكنة واحدة وخاصة في الاستانه ودمشق مما يسر لهم الاستمرار في الاتصال والحديث والنشاط والحماس بسبيل الفكرة القومية وأهدافها ، كما ان تجمع أعداد كبيرة من جنود العرب تقدر بعشرات الألوف وعدد غير يسير من ضباط العرب يقدر بالألوف نتيجة للنفير العام مما كان يبعث في العرب القوميين آما لا

كبيرة يحققونها اثناء الحرب أو بعدها . ولم يكن أقطاب الاتحاديين غافلين عن ذلك فرأوا من جانبهم ان ظروف الحرب فرصة سانحة للقضاء على الفكرة القومية العربية والتنكيل برجالها فأقدموا على خطوتهم بواسطة طاغيتهم جمال الذي عينوه قائداً عاماً في البلاد العربية العثمانية .

وكان من خطواتهم الأولى بعثرة الجنود والضباط العرب في مختلف أنحاء الدولة وجبهات الحرب ، ثم اعقب ذلك تشكيل الديوان العرفي العسكري في عاليه ، وتعقب رجالات العرب وشبابهم الذين برزوا على مسرح الحركة العربية ؛ فكان من نتائج ذلك تلك المأساة الدامية التي زهقت بها ارواح عدد كبير من اولئك الرجال والشبان بتهم تحكمية أو خيالية وبمحاكمات صورية استعمل فيها أنواع الارهاب والتعذيب بسبيل الحصول على اعترافات أو أسرار مبورة ، ولم ينج الا القليل ممن دخل في شباك ذلك الديوان ، ثم أعقب هذا عملية نفي وتشريد لطائفةغيريسيرةمن رجال العرب وأسرهم . وهكذا انتشر جو شديد من الارهاب وقدم العرب ضحاياهم العزيزة الاولى في سبيل فكرتهم وحركتهم القومية . ولولا نشوب الثورة العربية الكبرى تحت راية الحسين لاستمرت المأساة واستفحلت ، وأكلت أضعاف ما أكلت من رجال وشباب ، ولكانت عملية النفي والتشريد اتسعت دائرتها اتساعاً خطيراً على ما لمس بوادره المراقبون .

وبهذا صار الموقف حاسماً بين العرب القوميين ومن هم بسبيلهم وبين الترك القوميين الذين كان زمام الدولة في أيديهم . ومن الطبيعي أن يكون للبغي الواقع أثر قومي وحاسم في شعور العرب ونفوسهم وأوساطهم بمقياس أوسع كثيراً من ذي قبل ، وأن يهزها هزاً ، وأن يوجه من نجا من مشانق جمال وسجونه وتشريده من رجال الحركة العربية في وجهة أبعد مدى من الوجهة التي كانوا عليها ، وبعبارة أخرى إلى وجهة الانفصال عن الدولة وإنشاء كيان عربي مستقل ، واستغلال فرصة الحرب القائمة بكل طريقة ممكنة بسبيل ذلك . وقد خطا العرب إلى هذا الاتجاه خطوتهم الحاسمة في ثورة الحسين الكبرى ، وهي الدور الثالث للحركة في عهد الدولة العثمانية .

من شهداء النهضة العربية



توفيق البساط — نايف تللو — عبد الغني العريسي

الامير عارف الشهابي — الشيخ حسن طباره — محمد المحمصاني

رشدي الشمعة — عبد الوهاب الانكليزي — امين لطفي الحافظ

من شهداء النهضة العربية

عبد الحميد الزهراوي

عمر حمد

سعيد عقل

جلال الدين البخاري

علي الارمنازي

شكري العسلي

عزة الجندي

محمود المحمصاني

عبد القادر الخرسا

اربعة من الشهداء عقيب اعتقالهم



من اليمين - عمر حمد . توفيق البساط . عبد الغني العريسي . عارف الشهابي ، يحاولون اجتياز الصحراء في طريقهم الى الجزيرة العربية ، وهم متنكرون بالملابس البدوية



جمال باشا

طغيان جمال

ونستطرد فنقول إن الطاغية جمال الذي كان يحتفظ بمنصبه الوزاري « وزير البحرية » والذي كان يشمل بسلطاته بلاد الشام والعراق وكليكيه « ولاية أذنه » قد استطاع بما احاط نفسه به من مظاهر السلطان والأبهة ، واصطنعه من وسائل الجبروت والقسوة أن ينشر جواً شديداً من الارهاب قاسى العرب في ظله عظيم العنت والبلاء والكرب والخوف ، وزاد ديوان عاليه وتحقيقاته ومطارداته ومآسيه الشدة شدة والبلاء بلاءً حتى لقد صارت القلوب تهلع من اسمه ، والبلد الذي ينزل فيه تهتز لمنزله ، وكان وجوده ورحلاته كأنها بلاء مسلط وسيف مصلت فوق الرؤوس يحار الناس كيف يدفعونه ويدعون ربهم بالطف فيهم منه ، ويتفنن الظاهرون في ضروب التزلف إليه جلباً لرضائه ودفعاً لسخطه .

وقد اختص لبنان بقسوته فأجاعه حتى صار الناس يموتون رنقاً على قوارع الطرق ومن الأطفال من كان يوجد ميتاً في المزابل وهم يبحثون عن حبات غير مهضومة من القمح والشعير في براز الدواب أو نفايات الطعام ، ولقد وصل من قسوته واستهتاره أن فرض نفسه ضيفاً على حافظ باشا المحمد عبد الهادي في جنين عقب إعدام ابن أخيه سليم الذي شنق مع من شنق من القافلة الأولى في بيروت بتهمة انتسابه إلى حزب اللامركزية . ولقد بلغ من اغتراره بما اصطنعه من مظاهر السلطان والجبروت التي جعلته حاكماً بأمره مطاعاً في كل ما يرسم ، وأميراً غير متوج أن حدث نفسه بتوطيد الحكم المستقل أو شبه المستقل لنفسه على بلاد الشام ، وأن صار يقف من الوزارة موقف الاملاء والتحكم ، فكان ذلك مما أقض مضاجع الوزراء ، ولا سيما ان مرجل العرب قد غلا من قسوته وتصرفاته الباغية ونشبت ثورتهم في الحجاز ضد الدولة ، واخذت البوادر تدل على الاستجابة إلى دعوتها من قبل ضباط العرب وغيرهم ، ولم يجدوا وسيلة إلى استدعائه ومحاولة تهدئة الجو إلا الخديعة فالتمسوا من الامبراطور غليوم استدعاءه إلى برلين للمشاورة ولم يكد يغادر البلاد حتى عينوا خلفاً له .

ومما حدثني به امين التميمي وكان مفتشاً في الداخلية ، وقد عين عقب الهدنة للتحقيق في مذابح الأرمن ومأساتهم انه اطلع في اثناء مهمته هـــذه على برقيتين متبادلتين بين انور وزير الحربية ووكيل السلطان في القيادة العامة وبين جمال في صدد إعدام من اعدم من رجالات العرب فيها الدلالة القوية على الجرأة المتناهية في الطغيان والاستهتار ، وحيث يفهم منها ان جمالاً قـــد نفذ حكم الاعدام في شهداء العرب قبل الحصول على موافقة الوزارة وصدور إرادة السلطان التقليدية بذلك ؛ وقد جاء في برقية أنور ان وزير العدلية خليل بك متذمر من اقدام جمال على تنفيذ الاعدام من دون إرادة سنية ، فكان جواب جمال إني اعرف ميوعة خليل بك وتعقيداته أما الارادة السنية فليس اسهل عليكم من تدبير أمرها ...

ومن طريف ما وقع ويدل على نفس الموقف وقـد اطلعت عليه بنفسي حينما كنت موظفاً في دائرة البرق والبريد ان السلطان رقّى أنور إلى رتبة الفريق الأول فأذاع هذا بلاغاً بذلك حسب المعتاد ، فما كان من جمال إلا ان ابرق بالتهنئة الى انور ووقع بتوقيع « الفريق الأول جمـال » ، مما اضطر انور الى تغطية الموقف وتفادي النتائج فاستصدر إرادة سنية بلغها في نفس اليوم إلى جمال مهنئاً إياه بالمثل..

ولقد كان في جملة ما وجهوه من تهم وتخيلوه من اسباب التنكيل الباغي الذي أقدموا عليه اندماج رجالات العرب الذين برزوا على مسرح الحركة العربيـــة الاصلاحية واللامركزية في مؤامرة سياسية اجنبية ضد الجامعة العثمانية ، مستدلين على ذلك بما كان من مطلب تعيين مستشارين أجانب في دوائر الولايات ، وما كان من عقدهم المؤتمر في بهو بلدي رسمي في باريس وعطف الحكومة الافرنسية عليه ، ومن اندماج عدد من وجهاء النصارى وزعمائهم ومثقفيهم في هذه الحركة مع ما كان معروفـاً من عواطف النصارى وميولهم نحو الدول الأجنبية وخاصة نحو فرنسة وانكلترة وروسية .

ولقد يكون بين الذين قاموا بالحركة الاصلاحية البيروتية خاصة وبمؤتمر باريس كذلك من يميل الى فرنسة او يضلعون معها ، غير ان مما لاشك فيه ان جل القائمين بالمؤتمر وبالحركة الاصلاحية واللامركزية كانوا مخلصين كل الاخلاص لبلادهم وامتهم ومستقبلها كما كانوا صادقين كل الصدق في رغبتهم في الاصلاح والنهوض في نطاق

الدولة العثمانية . ولقد فطن بعض رجال المؤتمر الى ما يمكن ان يكون من استغلال حركتهم وعقدهم مؤتمرهم في باريس ومجاملة رجال الحكومة الافرنسية لهم فصرحوا لوزير الخارجية الافرنسية في زيارتهم له بهذه الرغبة بلهجة حاسمة وحازمة .

كذلك كان مما وجه من التهم رغبة القائمين بالحركة العربيـة في الانفصال عن الدولة ، والحق في هذا هو ان منهج القائمين بالحركة العربية من شبان وغير شبان ومن سريين وعلنيين كان في البدء هو المنهج الاصلاحي اللامركزي او الاستقلال الذاتي . وغاية ما كان يذهب اليه بعضهم ان يكون العرب في الدولة العثمانية كالمجر في الدولة النمسوية قبل الحرب العالمية الاولى اي حكومتان تحت تاج واحـد . وقد اخذ هذا يتطور الى الرغبة في الانفصال في اذهان بعض مؤسسي الجمعيات العربية السرية ورجال العرب القوميين البارزين الآخرين بعد ما بدا من الاتحاديين مـــن نكث بوعود الاصلاح الـتي قطعوها واشتداد تجهمهم للحركة ورجالهـــا وبوادر خطواتهم نحو القضاء عليها منذ مبادىء الحرب العالمية .

- ١٣ -

الشيوخ والشبان في الحركة العربية

وقبل ان ننقل الكلام الى الدور الثالث نريد أن ننبه استطراداً على ان قوام التكتلات السرية الأقوى والبارز كان الشباب ، في حين كان الكهول والشيوخ قوام التكتلات العلنية الأقوى والبارز، بماهو متسق مع طبيعة كل منها . فالسرية ذات خطورة وخطر تتناسب مع حماس الشباب واستعدادهم للمجازفـة ، وسريتها تجعل الاندماج فيها ايسر لعدم الحاجة فيها الى التحوط في المقاصد والغايات وللنشاط والحركة . أما العلنية فانها بما يكون فيها من هذا التحوط تجعل الاندماج فيها على الكهول والشيوخ ايسر فضلاً عن حاجتها الى جمهرة مؤيدة لا تتيسر إلا إذا قـام بأمرها ذوو نفوذ وزعامة مما لا يكون في الأغلب إلا للكهول والشيوخ .

ومع ذلك فقد كان في السرية كهول وشيوخ ، وكان في العلنية شباب . وكان اغلب هؤلاء من رجال الجمعيات السرية . وقد كان الجيلان يعملان جنباً الى جنب

دون شعور بالفرق ودون ان تظهر بينها مظاهر الدفع والجذب والتنافس والتناظر التي ترافق الجيلين عادة في مجالات الحياة ، وخاصة الحياة العامة . وهذه ظاهرة جديرة بالتسجيل من دون ريب . ولعل مردها إلى طبيعة الحركة التي كانت مجازفة ومطمحاً اكثر منها مجال مناصب وتباه وربح عاجل ، والتي كانت حركة قومية جديدة بقطع النظر عن معنى الشباب والشيوخ ومابينهم من فوارق ومباينات إزاء حركة عنصرية استعلائية اتحد فيها الجيلان التركيان ايضاً فأثارت النيرين من احرار العرب من كلا الجيلين . ومن الحق ان نسجل في صدد هذه الظاهرة ان الشباب كانوا من المرونة في حسن الاندماج والمسايرة والعمل مع الكهول والشيوخ بحيث سهلت سير الحركة والالتقاء والتجاوب بين الجيلين في ساحاتها العديدة السرية والعلنية التقاء اخوة وتعاون وتضامن وتجاوب مصلحة قومية مشتركة . ولعل مرد هذا أو مرد شيء منه إلى أن فريق الشباب او بارزيهم كانوا أعضاء في الجمعيات السرية التي كانت تأخذ لنفسها صفة الموحي والمدير قليلاً او كثيراً .

عبرة لشباب اليوم وواجباتهم

ومهما يكن من أمر فان طبقة الشباب قد استطاعت ان تفرض نفسها ، وأن تشغل حيزاً مهما او الحيز الأهم في الحركة والنشاط القومي ، وأن لا تستجدي مركزها من الكهول والشيوخ استجداءً ، وأن تجعل هؤلاء طوعا أو كرها يقبلون هذا الوضع ويسايرونه . ولقد استمر هذا بحيث كان كذلك في غير عهد الخوف والسرية ، أو بالأحرى في عهد السعة والمناصب أي في العهد الفيصلي ١٩١٨ — ١٩٢٠ م ، بل وكان الأمر فيه على العكس بحيث كان الكهول والشيوخ هم المتذمرون من تفوق الشبان عليهم في البروز وامتلاك زمام الامور ، والمضطرون إلى مسايرة الشبان والاستعانة بهم في توطيد مركزهم بينهم . وفي هذا عبرة قوية لطبقة شبان اليوم الذين يستجدون المركز من شبان الأمس وشيوخ اليوم ، ويعجزون عن فرض أنفسهم بالجد والتكتل ويتذمرون من هؤلاء الذين لايجودون عليهم ، ولا يفسحون لهم الطريق ! وإذا جادوا وفسحوا فدون ما يجب وعلى الوجه الذي يفرضون . نقول هذا عاتبين مستحثين مع اعتقادنا أن شيئاً من اللوم واقع

على شبان الامس ، لاننا نخشى أشد الخشية من أن يخلو الميدان منهم وهو آخذ بالخلو والخلو السريع فلا يكون فيه من شبان اليوم مـــن يشغل الفراغ ويحمل العبء ، وقد يطول هذا أكثر مما ينبغي فتكون النكسة الأليمة الضارة بالمصلحة القومية .

ومـــن الحق ان نذكر أن شبان الامس لم يفرضوا أنفسهم بالكلام والتبجح واللهو واستجداء فسح الطريق وإنما فرضوه بالجد والمغامرة والجلد والتضحية . وقد تكون طبيعة وقتهم مما ساعدهم عـــلى هذا ، حيث لم يكن الترف ونعومة الحياة متيسرين أو مطلباً جوهرياً كما هو الآن ، وحيث كانت تلك الطبيعة تدفع الشاب للرحلة من أقصى بلاد الدولة العثمانية إلى اقصاها – من الشام إلى البلقان أو اليمن أو طرابلس الغرب أو بالعكس في سبيل وظيفة زهيدة راكباً على ظهور البغال والجمال ، ونائماً في العراء والخيام ، ومكتفياً بالقليل الميسور مـــن وسائل الحياة ونعيمها ، وأين هذا مـــن شبان اليوم الذين صار الترف والبذخ والنعومة مطلباً رئيسياً عندهم لايستطيعون أولايريدون تضحيته أو تضحية شيء منه ، ويرون في حرمانهم منه نكبة كبرى . على أن هناك ما يعوض عليهم اذا رافقه شيء من الزهد في الترف وشيء من الجلد والتحمل وهو كثرتهم كثرة فائقة ، وتفوق كثير منهم في العلم والثقافة . فإذا لم يقدروا أن المطلب الجسيم يحتاج إلى تضحية وجلد واقدام واذا ظلوا قانعين بالتذمر والشكوى واللوم متهيبين الموقف ومقتضياته من الجد والكفاح والتكتل ليستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم ويشغلوا الحيز الذي يجب ان يشغلوه ، ويهيئوا أنفسهم لملء الفراغ فالقسم الاكبر من اللوم وسوء العاقبة واقع عليهم .

ولا ينبغي أن يخطر بالبال أن دور النضال القومي قـــد انتهى أو انه ينتهي بالخلاص من الاجنبي ، وانه ليس على الجيل الجديد واجب قومي كما كان عـــلى الجيل السابق . فهناك ادوار نضالية إيجابية شديدة الضرورة في صدد تركيز حقوق الامة واستكمال يقظتها ونهضتها ، وخاصة في صدد ما هي فيه من شدة الجهل والغفلة بحيث تكاد تكون في واد والأفراد الذين يظهرون على المسرح سياسيين وحكاماً وحزبيين في وادآخر . ولن تتحقق أهداف الفكرة القومية العربية ومثلها العليا ولن تتخلص الامة مما هي فيه مـــن ضعف البنية ، وتهريج المهرجين ، واستغلال المستغلين وحكم الافراد والأسر وتلاعبهم الا اذا أمكن تنظيم قواها وحشدها

وتنبيهها واصلاحها ونشر العلم والثقافة بين جميع افرادها ورفع مستواهاالاجتماعي والاخلاقي ، وهذا مجال نضال ايجابي عظيم المدى فسيح الارجاء يوجب على الجيل الجديد واجبات قومية خطيرة ،ولا يملأه الاالشبان ونشاطهم وتكتلهم وترسمهم الخطط العملية ودأبهم ، وكثرتهم هذه الكثرة الفائقة بالنسبة للجيل السابق تجعل الواجب عليهم ألزم وأسهل اذا ادركوه ونشطوا له ، واهمــالهم اياه واكتفاؤهم بالتذمر والشكوى كما قلنا ضار بمصلحة قومهم بالاضافة الى ضرره بمصلحتهم .

- ١٤ -

الدور الثالث

ونريد الآن أن نتكلم عن الدور الثالث . ومنهج الكتاب لا يتناول الاسباب في حركة الثورة وسيرها ؛ وقد كتب غيرنا شيئاً كثيراً من ذلك فيه الكفاية أو بعضها . ولذلك سنكتفي بالتعليق على ما يقتضي التعليق عليه .

عوامل الثورة الهاشمية وأثر الحركة القومية ورجالها فيها

لقد قيل إن العامل الاقتصادي الحجازي وخاصة مسألة التموين والحج كانت من الحوافز القوية التي حفزت الحسين طيب الله ثراه على خطوته الخطيرة واتفاقه مع الانكليز على الثورة ؛ كما قيل إن الطموح الشخصي الأصيل فيه والذي اشتد بعد توسده منصب أمارة مكة كان الدافع له عليها . وقد قيل كذلك إن مما دفعه عليها حسبانه عواقب التشاد الذي قـــام بينه وبين الوالي الاتحادي وهيب باشا بسبب محاولة كل من الرجلين فرض نفسه على الآخر ، والذي انتقل الى الوزارة الاتحادية فأثار نقمتها عليه . وقد يكون في كل من ذلك نصيب من الصحة وأثر في الخطوة غير ان ممـا لا يتحمل مراءً أنه كان للفكرة العربية القومية والحركة التي قامت بسبيلها ، وما كان مـــن أحداث خلال السنوات السبع التي سبقت المفاوضات والاتفاق أثر كبير فيها ؛ وإنها من أجل ذلك كانت تعبيراً قوياً وحاسماً عن تطور الاتجاه العربي والفكرة العربية تطوراً خطيراً . ولقد أشرنا في مناسبة سابقة إلى ما كان مـــن اتصال رجال الحركة القومية وجمعية الفتاة في الشام بفيصل وتحميلهم

إياه مهمة التعبير عن مطالب العرب وآمالهم إلى أبيه . ولقد كان الحسين نفسه في الاستانه في ظروف إعلان الدستور ، وتأثر بطبيعة الحال بما بدا من نشاط عربي وانتشر من فكرة عربيةقومية ، وبما ظهر من بوادر نيات الترك وخاصة الاتحاديين وكان نير العقل بعيد المطمح ، ثم صار امير مكة الرسمي ، وتعقب وهو في هذا المنصب الخطير ما وقع من أحداث عربية ، وما كان من تجهم الاتحاديين لها وخطوتهم الحاسمة عقب اعلان الحرب إلى التنكيل برجالات العرب والقضاء على الحركة العربية ، وما بدا منهم في هذا السبيل من قسوة وبغي . فلا جرم أن يكون قد رأى أن الحرب قد تكون فرصة سانحة لانقاذ العرب وتحقيق أمانيهم في الاستقلال والحرية والكرامة . ولعله رجح أن تغلب الدولة العثمانية فحفزه هذا على اغتنام الفرصة السانحة . ولقد كان أنجال الحسين في الاستانة مع أبيهم وصار بعضهم نواباً بعد أن استلم منصب أمارة مكة ، فما لا ريب فيه أنهم تأثروا هم الاخرون بالحركة العربية ونشاطها في الاستانة وأحداثها في البلاد الاخرى فكانوا عوناً لأبيهم في ما اقدمعليه من خطوة خطيرةمدفوعين بتأثرهم بطبيعةالحال

ولقد كان لنجله الثاني عبد الله « ملك الاردن الآن » ولنجله الثالث فيصل « المغفور له ملك العراق » بنوع خاص جهد في هذه الخطوة . فقد كان الاول مبعوثاً عن الحجاز في مجلس النواب بعد تعيين والده اميراً لمكة ، وشهد تطور الحركة العربية قبل نشوب الحرب وبعده واتصل ببعض الجمعيات السرية وتبنّى غاياتها ، ولمس من جهة اخرى ما كان من تجهم الاتحاديين لها وسوء نواياهم نحوها ونحو العرب ثم ما كان من تجهمهم نحو والده فحفزه كل ذلك على التفكير في استسناح فرصة الحرب للخطوة الحاسمة ؛ حتى انه اتصل بكتشنر حينما كان يشغل منصب المندوب السامي في مصر مرة وبستورس الذي كان يشتغل في قلم المخابرات الانكليزية فيها مرتين وتحدث معها في صددها ، وذلك بعد نشوب الحرب واندماج الحكومة التركية في المعسكر الالماني وقبل بدء المراسلات بين الحسين ومكماهون والتي انتهت الى ذلك الاتفاق بنحو سنة ؛ فكان من المشجعين المؤثرين على ما جرى من اتصال وتراسل واتفاق .

أما فيصل فقد انضم فعلاً الى جمعية الفتاة السرية وتبني غاياتها وحمل مطلب الحركة القومية الى والده ، وكان من المعجلين على التنفيذ بسبب ما مني به هو

ووالده في الشفاعة بقافلة الشهـداء الثانية وما لمسه في الطاغية جمال وزملائه من التصميم على السير في التنكيل بالعرب وتشريدهم بمقياس واسع .

ومما لا ريب فيه انه كان للحركة العربية وتطورها وما كان بسبيلها من احداث أثر في ما كان من اقبال الانكليز على الاتفاق مع الحسين ؛ وإن كانوا أرادوا في الدرجة الأولى اخراج الحرمين الشريفين اولاً واخراج العرب الذين هم ركن قوي في دولة الخلافة ثانياً من سلطان الترك واثارتهم عليهم لتوهين قوتهم المادية والمعنوية داخلا وخارجاً . فان قيام هذه الحركة وما كان بسبيلها من احداث وما قاساه العرب من شدائد وبلاء وما كان من تطورها واشتداد شعور الحقد على الترك وانبثاق الرغبة في الانفصال عنهم نتيجة لها هو الذي جعل الانكليز يرون امكان نجاح الثورة وامتدادها الى خارج الحجاز وانتظام انحاء اخرى من بلاد الدولة فيها وزيادة وهن هذه الدولة وارتباكها .

أهداف الثورة

ولقد احتوت رسائل الحسين – مكماهون التي قام الاتفاق عليه بين الانكليز والحسين على الثورة صدى قوياً لهذا الاثر وصورة واضحة لتطور الحركة العربية في استهداف الحسين انشاء كيان عربي مستقل واسع او بتعبير آخر في استهدافه الاهداف الصريحة والحاسمة لما يمكن ان تستهدفه الفكرة القومية العربية في بعثها الجديد على اوسع نطاق .

ففي المذكرة التي ارسلها الحسين الى مكماهون مع الرسالة المؤرخة في ٢٨ رمضان ١٣٣٣ – ١٤ يوليو ١٩١٥ جاءت هذه الديباجة :

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء قد قرروا في الاعوام الاخيرة ان يعيشوا ويفوزوا بحريتهم المطلقة ، وان يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم ، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى ان تساعدهم وتعاونهم للوصول الى امانيهم المشروعة ، وهي الاماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم ، ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على اي حكومة اخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية



« الملك علي »



« الملك فيصل »

« الملك حسين »



« الامير عبدالله »



« الامير زيد »

وموقفهم من حكومة بريطانيا ، وانه بالنظر لهذه الاسباب كلها يرى الشعب العربي انه من المناسب ان يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها او ممثلها على الاقتراحات الآتية :

ثم جاءت هذه الاقتراحات او بالأحرى هذا المشروع لمعاهدة عربيـة إنكليزية فضلاً عن ان الديباجة جاءت بمثابة ديباجة معاهـــدة تحالف إذا ما اسقطنا الفقرة الاخيرة منها :

اولاً : ان تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربيـة من مرسين – اذنه حتى الخليج الفارسي شمالا ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً على ان توافق انكلترا أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين .

ثانياً : تعترف حكومة الشريف العربيـة بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً : تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم احد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية وتأميناً لافضلية انكلترا الاقتصادية فيها، على ان يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية.

رابعاً : إذا اعتدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر ان يلزم الحياد . على أن هـــذا الفريق المعتدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين ان يجتمعا معاً وان يتفقا على الشروط.

خامسـاً : مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة . وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

ثم اختتمت المذكرة بهذه الخاتمة :

هذا ، ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق والحمد لله على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر فهو يرجو الحكومة البريطانية ان تجيبه سلباً او ايجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح . واذا انقضت هذه المدة ولم يتلق جوابا فانه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء . وفوق هذا نحن عائلة الشريف نعتبر انفسنا

إذا لم يصل الجواب احراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي افندي«١» .

وعلي افندي هـذا مندوب ارسله الانكليز للتحدث مع الحسين ، مما يدل على أن هذه الرسالة هي بداية رسمية مسبوقة بأحاديث واتصالات غير رسمية ، وانها ارسلت لتكون المذكرة المطلوبة فيها القاعـدة الأساسية التي يقوم عليها الاتفاق . والفقرة الأخيرة نفسها تحمل هذه الدلالة .

والهدف القومي في المذكرة واضح رقوي وشامل في صدد مملكة عربية كبرى مستقلة استقلالا تاماً ومتحالفة مع بريطانيا على قدم المساواة . وتنتظم جميع جزيرة العرب وبـلاد الشام والعراق وجزءاً من كليكيا – اذنه ومرسين – الذي كان يسكنه جمهرة غير قليلة من العرب ، وكان يعد متمماً جغرافياً للبلاد العربية .

وقد قصد بما ورد من العبارات افهام الانكليز أن مشروع المعاهدة هو باسم العرب جميعهم ومعبراً عن رغباتهم ، وليس هو اقتراح الحسين وحده . وقد كان هذا موضوع أخذ ورد في الرسائل الاخرى على ما سوف نذكره بعد .

- ١٥ -

ويبدو في النصوص أثر الاتصال بين الحسين ورجال الحركة العربية واضحاً ، سواء في الحدود أو في المواد الاخرى او في الخاتمة ، بل نكاد نقول ان المشروع او اكثره من وضعهم حيث يبدو الفرق واضحاً بين اسلوبـــه واسلوب الحسين المعروف . ولقد ذكر انطونيوس في كتابه يقظة العرب«٢» انه اطلع على بيان عند الملك فيصل قال له عنه انــه المطالب التي وضعها رجال العهد والفتاة في دمشق وطلبوا منه ايصالها الى والده وحمله على سؤال الانكليز عما إذا كانوا يوافقون عليها وقد نقل البيان في كتابه وهو خلاصة المشروع المرسل للانكليز سواء في الحدود او في الشروط الاخرى .

«١» المقصود من الفقرة الاخيرة استرداد الحرية . والنص منقول عن كتاب الثورة العربيـــة الكبرى لأمين سعيد ج ١

«٢» نقل هذا الكتاب الى العربية من أصله الانكليزي علي حيدر الركابي .

والخاتمة ذات خطورة خاصة تدل على ان الحسين وانجاله ورجال الحركة العربية المتصلين بهم قد عزموا على العمل في سبيل اهدافهم بكل الطرق وعلى طرق ابواب اخرى في هذا الشأن إذا لم تقابل مقترحاتهم من بريطانيا بالقبول .

وفي رسائل الحسين الاخرى التي ناقش فيها التعديلات المقترحة للحدود المطلوبة يبدو ما ذكرناه واضحاً ايضاً حيث جاء في رسالته المؤرخة في ٢٩ شوال ١٣٣٣ – ٩ سبتمبر ١٩١٥ الفقرات التالية :

ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة أن البرود والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله ان البحث في هذه الشؤون إنما هو اضاعة للوقت وان تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها ؛ يعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا او على النفور او على شيء من هذا القبيل . فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هي مطالب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود ، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد . وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ، ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانيا العظمى . وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فانما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك . وهم يرون أنه من الضروري جداً ان يتم تنظيم الأراضي المجزأة ليعرفوا على اي أساس يؤسسون حياتهم كيلا تعارضهم انكلترا أو احدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي الى نتيجة معاكسة الأمر الذي حرمه الله . وفوق هذا فان العرب لم يطلبوا في تلك الحدود مناطق يقطنها شعب أجنبي بل هي عبارة عن كلمات والقاب يطلقونها عليها (يريد اسماء على الاغلب) . أما الخلافة فان الله يرضى عنها والناس يسرون بها . وانا على ثقة يا صاحب الفخامة انكم لا تشكون قط بأني لست شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأمره يعتقد انها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية ...

ولقد ذكر مكماهون في رسالته الجوابية على الرسالة الاولى « أن بعض العرب في الاقسام المطلوبة لا يرغبون في مساعدتنا بل ويقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والاتراك اي للهدامين والظالمين » فأجاب الحسين على هذا في الرسالة الآنفة

الذكر بما يلي : « وأود هنا يا صاحب الفخامة ان اؤكد لكم بصراحة ان كل الشعب ومن جملته هؤلاء الذين تقولون انهم يعملون لصالح تركيا والمانيا ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم او رفضكم قضية الحدود، وقضية المحافظة على دياناتهم وحمايتهم من كل أذى وخطر» بما يبدو فيه ما ذكرناه واضحاً كذلك.

وقد جاء ذلك التعبير وأثر تلك الاتصالات بارزين كذلك في منشور الثورة الذي أذاعه الحسين والمؤرخ في ٢٥ شعبان ١٣٣٤ - ٢٦ يونيو ١٩١٦ بقطع النظر عما فيه من الاسباب في الحملة على الاتحاديين والتنديد بخروجهم على الدين وتقييدهم سلطة الخليفة وتوكيد الاخلاص للخلافة والدولة العثمانية ؛ وتقرير أن ثورته ضد الاتحاديين الذين اغتصبوا الحكم وتسلطوا على الدولة بما يكاد يغطي عليها ؛ حيث جاء فيه « وأما ما خصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد . حاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بإبطالها من المدارس ومنعها من الدواوين والمحاكم . وأصدروا بذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثي العرب معارضة شديدة ونفّروا عنها في كتبهم الجديدة . وقد أمكنتهم فرصة اعلانهم الاحكام العرفية في البلاد من تنفيذ كل ما يريدون في العرب فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أرباب المعارف والافكار وحملة الأقلام وبارعي الضباط . وآخر ما وصل إلينا من بلاغاتهم الرسمية في ذلك انهم صلبوا في الشام واحداً وعشرين رجلاً في آن واحد منهم شفيق المؤيد والسيد عبد الحميد الزهراوي والضابط الكبير سليم بك الجزائري والأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وشكري بك العسلي وعبد الوهاب بك الانكليزي وتوفيق بك البساط . وإنما يقتلون أمثال هؤلاء جهراً ويصلبونهم في الشوارع العامة صلباً حتى لا يطمع عربي بأن يقول بعدهم إن لغتنا لغة الاسلام فيجب على الدولة الاسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها ، وان لنا في المملكة حقوقاً شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بها . ثم إنهم صادروا اموال من لا يحصى من الناس . وعمدوا المملكة إلى كثير من الأسر الغنية والمغضوب عليها لأسباب سياسية فأخرجوهم من ديارهم واموالهم وعقارهم وابعدوهم نساءً واطفالاً الى بلاد الاناضول بلا كافل شرعي فهتكوا حرمة المخدرات من النساء المؤمنات اللواتي لا يعرفن السياسة ، وعرضوا اطفالهن للهلاك بين ايديهن في طريق النفي الطويل . ولعلهم يريدون ان يأتوا بأتراك يحلون محل هؤلاء المنفيين فيسهل جعل البلاد السورية كلها تركية . . .

دفاع الحسين وتحفظاته

وما يجدر بلفت النظر اليه ان رسائل الحسين احتوت دفاعاً مكرراً عن المقترحات والحدود التي وردت في المشروع تجاه ما تضمنته رسائل مكماهون الجوابية من محاولات لادخال تعديلات عليها وما احتوته من عبارات مطاطة او بالأحرى من مراوغات مقصودة في صدد مستقبل ادارة الدولة وصلة الانكليز بها .

ففي رسالته ٢٩ شوال ١٣٣٣ - ٩ سبتمبر ١٩١٥ يقول : « وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطروننا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون مــن شأنها خلق متاعب جديدة تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة . وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسة بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ... »

وفي رسالته ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ - ٥ نوفمبر ١٩١٥ يتنازل عن ضم مرسين واذنه ولكنه يقول انه لا يمكنه ان يفعل ذلك في قضية حلب وبيروت وسواحلها لأنها عربية صرف وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي الذين هم جميعاً من نسل واحد ، وإن المسلمين سيسيرون على خطة عمر وسواه مــن الخلفاء الذين فرضوا معاملة المسيحيين كما يعاملون انفسهم وقرروا ان لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات ...

وفي رسالة ٢٩ شوال يقول انه يترك الآن الاصرار عــلى موضوع الساحل السوري الغربي تفادياً مــن احداث نزاع في اثناء الحرب بين إنكلتره وحليفتها فرنسا ولكنه لن يترك ذلك بعد انتهاء الحرب . وفي رسالة ٢٤ ذي الحجة يدافع عن وجهة النظر العربية بالنسبة للعراق الذي تحفظ الانكليز بشأن ادارته وصلاتهم به حيث يقول ان العراق قسم من المملكة العربية ، وكان مركز حكوماتها في عهد عــلي ابي طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وقد انشئت ابنيتهم الأولى فيه وعظمت قوتهم فإن العرب البعيدين والقريبين ينظرون اليه نظرة اعتبــار خاصة ولا يستطيعون بسهولة ان ينسوا تقاليدهم وذكرياتهم . ولذلك اعتقد انه ليس مــــن المستطاع اقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر . وانما رغبة منا في تسهيل الاتفاق واعتماداً عــلى عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر فقد

نوافق ان نترك لمدة قصيرة الاراضي التي تحتلها الجيوش الانكليزية تحت ادارة انكلترا . ويقول في هذه الرسالة رداً على تلك العبارات المطاطة والمراوغات ان كتابنا المؤرخ في ٢٩ شوال ١٣٣٣ يغنينا على ما اعتقد عن اعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الاخير بشأن الادارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ان لا يكون كما صرحتم تدخل في الشؤون الداخلية .

كذلك من الجدير بالتسجيل أن الحسين لمح لانكلترا وهو يدفع محاولات تعديل الحدود الغربية من سوريا لصالح فرنسا ومزاعمها ويرفضها اولاً ثم يبدي تحفظاته في صددها بما يمكن أن يكون لصلة فرنسا ببقعة من بقاع سوريا من أثر ضار لمصالحهم أيضاً حيث جاء في رسالته ٢٩ شوال : ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي آمن على مصالح انكلترا من خطة انكلترا على مصالحنا ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها .

منافذ المراسلات وأسبابها الصحيحة

ومهما يكن من أمر فإن المراسلات وإن كانت انتهت إلى ثمرة إيجابية في نظر الحسين في صدد اعتراف انكلترا باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحت والتي تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية فإنها ظلت رغم دفاع الحسين وتحفظاته القومية الصريحة تحتوي منافذ تستطيع انكلترا أن تخرج منها – وقد فعلت ذلك أثناء الحرب وبعدها – بالنسبة للبلاد الشامية والعراقية خاصة .

ومرد هذا في ما نعتقد ضعف الامكانيات السياسية والمادية في الحجاز خاصة والبلاد العربية والأمة العربية عامة بما في ذلك ضعف نضوج الرجال وقوة عزائمهم، وشعور الانكليز بهذا الضعف ، وبحاجة الحجاز خاصة والعرب عامة إليهم في كل شيء حاجة شديدة على أي حال . ولا سيما إن هذه الحاجة وذلك الضعف كان يبدو مرة بعد مرة في رسائل الحسين وعباراته بشكل عجيب .

ومما يتبادر أن ما كان من صيت قوي لبريطانيا وشرفها وعدلها وصدق وعودها قد كان ذا اثر أيضاً في ذلك حيث ظن الحسين أنها سوف تساعده مساعدة مادية

واسعة تجعل من العرب قوة فعّالة ذات كيان وموقف مؤثر يتيح له تحقيق آماله والتسليم بتحفظاته وأنها إذا خرجت ظافرة بارة بوعودها محافظة على شرفها معه . ولعل ما كان من مظاهر الحركة العربية وتطورها خلال السنوات السبع قد جعل الحسين وإنجاله ورجال الحركة الذين اتصلوا به يعلقون آمالا كباراً على اشتداد حيوية العرب بحيث يساعدهم على تحقيق ما أرادوه بعد أن حصلوا من إنكلترا على ما حصلوا عليه من وعود وعهود .

- ١٦ -

الثورة ضرورة قومية

وعلى كل حال فإن اتصالات الحسين بالانكليز ورغبة رجال الحركة العربية في هذه الاتصالات كانت حركة موفقة من حيث المبدأ بل ومن حيث العمل والنتيجة أيضاً ، وان الحسين طيب الله ثراه قد قام في خطوته بواجب عظيم تجاه الأمة العربية في يقظتها الحديثة وأسدى إليها يداً بيضاء مشكورة ، وأخرج القضية العربية بها من حيز الفكر والخاطر والأمنية إلى ميدان الحقيقة الواضحة العملية ، وجعلها بارزة المكانة بين قضايا العالم القومية .

ولقد كان موقف الحسين وما أخذه من عهود ووعود وأبداه من تحفظات واعتراضات وسائل قوية في النضال القومي الذي قام به العرب الشاميون والعراقيون بعد الحرب توسلوا بها في مختلف المناسبات وشتى المواقف ، وكانت عاملاً من عوامل ما وصلوا إليه من النتائج الايجابية في هذا النضال . ولو كانت الامة العربية أكثر حيوية وأشد نضوجاً وأقوى بنية مما ظهر منها أثناء الحرب وعقبها لكانت تلك الوعود والعهود والتحفظات والاعتراضات كفيلة بأن تحقق لهم جل ما كانوا يأملونه .

تعليقات وردود

وما اريد توجيهه إلى الحسين من مسئولية الخروج على الدولة وتصويره سبباً في إنكسارها وتمكين الأجنبي من بلاد الشام والعراق هو دعاية بذلت الجهود في بثها

ثناء الحرب وظلت مستمرة في الأذهان ، وقويت بما كان مـن خيبة أمل وغدر من الحلفاء . فمها لا تصح المكابرة فيه ان الثورة العربية لم تكن حاسمة التأثير في ما احرزه الحلفاء من نصر في ميادين الحرب الكبرى الأوروبية والأسيوية ، وإنما كانت معاونة ورافدة أسديت مقابل عهود قطعت وما كانت لتعطل هـذا النصر وكانت مفيدة لقضية العرب في الدرجة الأولى فائدة عظيمة . فلو لم تكن لانتصر الحلفاء ايضاً ، وما كانت الدولة العثمانية لتصمد في حال بعد انكسار المانيا والنمسا العظيمتين في اوروبا ، ولما كان حينئذ للقضية العربية المكان البارز الذي صار لها بين قضايا العالم بعد انبعاثها بعشر سنين فقط ، ولحرم العرب من وسيلة قوية في نضالهم القومي انتفعوا بها في الدعاية والحجاج وفي إثارة العاطفة والاحقاد القومية ، وفي نيل ما نالوه من اهدافهم القومية في حقبة قصيرة ، ولكانت بلادهم اشد بلاء مما كانت ، ولكان سجل على الحركة العربية عار تقصير كبير بعد ان ظهر من بوادرها ما ظهر من حيوية ونشاط وبعد مدى ، وبعد ان ظهر من الاتحاديين ما ظهر من القسوة والبغي وسوء النية في التنكيل والتشريد . وحتى على فرض احتمال انتصار الالمان والدولة العثمانية فان الثورة لم تكن لتفقد مغزاها القومي بل ولعلها لم تكن تفقد أثرها الايجابي في وجوب إرضاء العرب وتطمين رغباتهم وأمالهم من جهة ، ولما كانت البلاد العربية على كل حال اقل بلاء وسوءاً من جهة اخرى إن لم تكن أشد ؛ بل ولقد كان من المحتمل ان يكون الاتحاديون أجرأ على البطش والتنكيل والتصرف في العرب وبلادهم بما يبتره لتوطيد الاستعلاء العنصري التركي والقضاء على اليقظة العربية القومية فضلاً عن ما كان من احتمال امتداد يد الألمان الحديدية إليها بالاستعمار .

كذلك بولـــغ كثيراً في توجيه النقد للحسين لما كان من منافذ وثغرات في مراسلاته ، وفي النتيجة التي انتهت إليها . ونعتقد أن هذا النقد قد صدر بروح ما بعد الحرب أيضاً ، ونتيجة لما كان من غدر الانكليز وختلهم وخيبة الآمال التي علقها رجال الحركة العربية على انتصار الحلفاء . فقد اجتهد في سد هـــذه المنافذ والثغرات اشد اجتهاد بل وكان فيه قوي البصيرة نافذها ؛ ولقد غضب هو واولاده حينما بلغهم أخبار اتفاقية انكلترا وروسيا وفرنسا في تقسيم بـلاد الدولة العثمانية



الملك فيصل في الصحراء اثناء الثورة العربية

ومناطق النفوذ التي شملت بلاد الشام والعراق ثم اخبار اتفاقية سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا على بلاد الشام والعراق ثم أخبار تصريح بلفور ، وكانت هذه الاخبار قد أرسلت من قبل القائد التركي جمال باشا الصغير إلى الامير فيصل في العقبة في اوائل سنة ١٩١٨ ، حتى انه جرت محاولات صلح منفرد بين الترك والعرب من قبل هذا القائد مع فيصل نتيجة لذلك . وكان من أثر هذا ان ارسل الانكليز عهداً جديداً بتاريخ ٨ شباط ١٩١٨ يهدىء من ذلك الغضب ويؤكد إخلاصهم للقضية العربية وما قطعوه من عهود ، ويعزو ما بلغهم إلى دسائس الترك ولما انتهت الحرب وظهر منهم ما ظهر من غدر وختل وتآمر ظل الحسين ينعى عليهم ذلك ويطالبهم بالوفاء ، ويرفض ما يعرضونه عليه من عروض لم تحتو تحقيق العهود وابى أن يعقد معهم معاهدة يضمن بها عرشه ، وفضل البقاء بدون حليف وسند الى أن ضاع ذلك العرش وخرج من بلاده شريداً .

ولقد كان الانكليز أجرأ على الغدر وأوغل في المراوغة والقحة من ان يتقيدوا بالنصوص حتى لو كانت محكمة خالية من الثغرات ما دام العرب لا يملكون القوة المؤيدة والعزيمة الشديدة والبنية القوية مما هو وحده الذي يساعدهم على تحقيق ما ارادوه من النصوص ، ولا سيما كان فيها من التحفظات ما فيه الكفاية أو شيء منها . وهل الحسين الا من غزية ان غوت غوى وان ترشد رشد !!

ويذكر الذاكرون ان فصائل الثورة التي دخلت الشام تحت لواء فيصل لم تلبث ان انحلت ولم يبق منها الا بضع عشرات من الحجازيين ، وان الفصائل التطوعية الجديدة التي الفت بعد ذلك لتكون حاميات لم تتجاوز الثلاثة آلاف ولم يكن لديها من السلاح والعتاد ما يساعدها على اي حركة ثورية ناجحة ضد قوى الانكليز والافرنسيين التي كانت تحتل انحاء الشام من الغرب والجنوب فضلاً عن امكان تزيد عددها ، وما كان يتطلب هذا من اموال وفيرة غير ميسورة . ولقد كان الانكليز الذين موّنوا الثورة يضنون اشد الضن فيما يسلمونه من سلاح وعتاد مما كان دائماً مثار الشكوى الشديدة من الحسين وانجاله وضباط ثورته . أما المال فقد كان يعطى الكثير منــــه للقبائل البدوية في الحجاز والشام لضمان عونهـــا او كبح شرها . وما كان هذا ليضمن استمرار بقاء جيش ثوري ذي بال يجعل الانكليز وغير

الانكليز يحسبون حسابه قليلا او كثيراً . ولو كان شيء من هذا لكان له اثر ايجابي في بقاء العهد الفيصلي في الشام الداخلية على الأقل مساعداً بما كان في اليد من عهود وتحفظات ، ولا سيما ان الحرب كانت قد انهكت قوى الحلفاء ولم يكونوا ليقدموا على عمليات حربية ضد قوى عربيـــة فيها بعض الغناء والكفاية . والامثولة التي ضربها الكماليون ما تزال قائمة شاهدة وخاصة بما كان من مسارعة فرنسة الى التهادن معهم . ولعل هذا النقص من أهم ثغرات الثورة العربية .

-١٧-

اثر الثورة وسيرها في الحجاز

ولقد آتت ثورة الحسين ثمرتها العاجلة بالنسبة للحجـاز ؛ فقد امكن التغلب على القوى التركية بسرعة في مكة، وإن كان التغلب على بقيتها في الانحاء الحجازية الاخرى قد احتاج إلى بعض الوقت والجهد ، حيث جرت معارك عديدة ، وحيث لم تسقط جدة إلا في ٤ تموز ١٩١٦ ، والطائف في ٢٢ أيلول ١٩١٦ ، وحيث حاصرت القوى التركية في المدينة إلى ٧ كانون الثاني ١٩١٩ ، غير أن سلطة الحسين كانت قـد توطدت قبل ذلك بكثير في أنحاء الحجاز .

ولقد اطلقت الطلقة الاولى في ٩ شعبان ١٣٣٤ - ١٠ حزيران ١٩١٦ واعلن استقلال الحجاز عقب ذلك بقليل ، وبعد التغلب على الحامية التركية في مكة . وقـد جاءت الاشارة الى ذلك في المنشور الذي اذيع في ٢٥ شعبان ١٣٣٤ – ٢٦ حزيران ١٩١٦ حيث جاء فيه :

« ولما كان امر حماية الحجاز من هذا البغي والعدوان ، واقامة ما فرض الله فيه من شعائر الاسلام ووقاية العرب والبلاد العربيـة من عاقبة الخطر الذي استهدفت له الدولة العثمانية بسوء تصرف هـذه الجمعية الباغية ، كل ذلك لايتم تداركه إلا بالاستقلال التام وقطع كل صلة بهؤلاء المتغلبين السفاكين للدماء الناهبين للأموال ، وقد هبت البلاد بتوفيق الله تعالى للنهوض بأمر استقلالها بعد ان ضربت على أيدي عمال الاتحاديين استقلالاً تاماً مطلقاً بكل معاني الاستقلال الذي لاتشوبـه شائبه

مداخلة أجنبية ، او تحكم خارجي ... الخ . » .

وقد ظل الحسين يحتفظ بلقب أمير مكة إلى تاريخ ٦ محرم ١٣٣٥ ـ ٣ كانون الاول ١٩١٦ ؛ وفي هـــذا التاريخ بويع ملكا على العرب والفت وزارة رسمية ، وابلغ الأمر لوزراء خارجية الحلفاء ، فاعترضت انكلـــترا وفرنسا على اللقب ولم تعترفا إلا بلقب ملك الحجاز . وكان هـذا مثار مراسلات وشكوى ولكن الأمر وقف عند هـــذا الحد ، مما مرده الى ما ذكرناه قبل من الشعور بالضعف والحاجة الشديدة . وقد كانت هذه الحادثة من أوليات ما صدم به الحسين من الانكليز بعد اعلانه الثورة . وقـد كان الملك عبد العزيز من المعترضين بشدة على اللقب أيضاً . على ان مما لا ريب فيـــه أن موقف بريطانيا وفرنسا كان متصلا بما بيت من نوايا ومآرب في صدد البلاد العربيـة الاخرى التي دخلت حدودها في رسائل الحسين ـ مكماهون . ولا سيما ان معاهـدة تقسيمها الى مناطق نفوذ واستعمار بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وخاصة معاهدة سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا قـد ابرمت قبل ذلك حيث ابرمت في شهر مايس ١٩١٦ .

حملة فيصل الشمالية وسيرها

أما خارج الحجاز فالحملة الثورية الوحيدة التي تحركت منه هي الحملة الشمالية التي قادها فيصل ، والتي تكتل فيها من التحق بالحجاز من ضباط العرب وشبابهم من أبناء الأقطار الشامية والعراقية . وقـد تحركت في أوائل سنة ١٩١٧ متجهة نحو البلاد الشامية ، وظلت تقوى بمن كان ينضم اليها من البدو وضباط العرب وشبابهم ورجال الدروز ، وتناضل القوى التركية رتعطل مواصلاتها ، وتوقع فيها الخسائر ، وتتقدم رويداً رويـداً تقدماً موازياً لسير الحرب في الجبهة الجنوبية من بـــلاد الشام ـ اي سيناء وفلسطين ـ التي كانت بقيادة اللنبي قائد الحلفاء في الوقت نفسه في هذه الجبهة والذي جعلت حملة فيصل تحت قيادته العليا كذلك ، فاحتلت شمال البلقاء وحوران ودخلت دمشق الشام في أول تشرين الأول ١٩١٨ ، وأتمت احتلال بقية سوريا الداخلية في برهة وجيزة .

ومما وقع ان الانكليز لأمر بيتوه رأوا أن يبرزوا في سير حركة الحملة فسارعوا الى ارسال بعض فصائلهم لتدخل دمشق قبل دخول فيصل ، ولتحتل مع الفصائل العربية سائر سوريا الداخلية أيضاً مما أثار العجب والتساؤل .

وكانت الجبهة العثمانية قد انكسرت في فلسطين أمام حملة الحلفاء ، وأخذت الكتائب التركية تنسحب بسرعـــة نحو الشمال تتبعها فصائل الحلفاء من الجنوب وفصائل الثورة من الشرق الجنوبي وتوقع فيها الخسائر حتى تم الانسحاب قبل دخول الفصائل الانكليزية والعربية لدمشق .

وقد أعلنت السلطات العثمانية وهي تنسحب أنها تترك أمر البلاد لأهلها وأقامت حكومات محلية موقتة لحفظ الأمن وسد الفراغ ؛ فقامت حكومة الأمير سعيد الجزائري في دمشق وحكومة عمر الداعوق في بيروت على هذه القاعدة .

ولقد حاول فيصل أن يشمل لبنان بسلطته العربية فأرسل شكري الأيوبي ممثلا عنه إلى بـــيروت ومعه محمد رستم حيدر والدكتور أحمد قدري ليساعداه ، فاستلم الحكم فيها من عمر الدعوق ، ولبث فيه نحو اسبوع والأعلام العربية تخفق في أجواء بيروت وأنحاء لبنان والسواحل السورية الأخرى . وقد كنا في هذه الفترة في بيروت فشهدنا هذا المنظر والعيون تفيض بدموع الفرح والنفوس تجيش بعواطف الحماس وكبار الآمال . وقد كان الاسبوع الذي سبق دخول فيصل لدمشق اسبوعاً حائراً . كان الناس يتسامعون فيه عـــن اقتراب فيصل وفصائله والمسلمون والشاعرون بشعور القومية من النصارى يترقبون الأخبار ترقب المتحمس المتهيج ، حتى لقـــد أرسلت حكومة الداعوق بعض الرسل في البر والبحر لتأتي بالأخبار وتأتي بشكل علم الثوره العربية . وكان غير الشاعرين بشعور القومية لا يدرون ما يفعلون كأنما كانوا موعودين بشيء آخر غير العلم العربي والحكم العربي .

على أن فرحة العرب كانت قصيرة الأمد جداً ؛ لأن الفصائل الافرنسية ما لبثت أن قدمت وصدرت الأوامر لشكري الأيوبي بطي الأعلام والانسحاب ، وعلل هذا بالضرورات الحربية ؛ ولا سيما ان البلاد جميعها سميت بأسم بلاد العدو المحتلة ، وجميع القوى فيها كانت تتبع قيادة اللنبي العامة . وكانت هذه الحادثة من الصدمات الأولى التي صدمت بها الحركة العربية عقب الحرب ، والتي كانت مظهراً من مظاهر الغدر المبيت لها أو حلقة من حلقاته .

اما العراق فقد كان الأنكليز احتلوا أكثر أقسامه اثناء الحرب ، فلم يدخل في اهداف الحملات العربية الثورية . وكان المقدر له أن تنبثق الثورة التحريرية منه بعد سنتين أو أقل من انتهاء الحرب احتجاجاً على ما ظهر من نوايا الانكليز الاستعمارية فيه .

ولقد كان مما فكر فيه إنزال قوى عسكرية حليفة الى الاسكندرونه ،واشعال نار الثورة في الشام بواسطة ضباط العهد حالما تشتعل الثورة في الحجاز استفادة من وجود عدد كبير من ضباط العرب وجنودهم فيها نتيجة للنفير العام ، حيث كان هذا مما اتفق عليه رجال الحركة مع فيصل . غير ان الحلفاء لم يتفقوا على تحقيق الفكرة ، وكانت سياسة بعثرة ضباط العرب وجنودهم سير فيها أيضاً فكان ذلك من عوامل الانصراف عن هذه الخطة .

- ١٨ -

أثر الثورة في الاقطار العربية

ولقد كان لانفجار الثورة في الحجاز اثر عظيم في افكار العرب وأوساطهم بالرغم عما حاولته السلطات التركية من تهوين شأنها اولا ، ومن إثارة الحملات الشديدة والدعايات المضادة ضد القائمين بها ثانياً ، ولا سيما انها جاءت والرعب قد استحوذ عليهم وخلع قلوبهم من الطاغية جمال مما كان من قسوته وبغيه وجبروته في شنق عدد كبير من رجالاتهم وسجن وتشريد عدد كبير آخر ، وتجويع الساحل السوري ولبنان تجويعاً اليما ، وبدو بوادر حركة تشريد واسعة ذكرتهم بما كان من الاتحاديين نحو الارمن عقب اعلان الحرب ، وكانت من العوامل القوية في توسيع مدى انتشار الفكرة العربية في مختلف اوساطهم ، واتجاه الأذهان والقلوب اليها والاهتمام لها ، وتداول الأحاديث مما يمكن أن يكون للعرب بنتيجتها من حياة جديدة فيها المجد والعز والقوة والنهوض ، وفيها الاستقلال والحرية والوحدة وقد كان للشبان المتنورين وخاصة للذين لهم صلة بالحركات والتشكيلات أثر ايجابي في ذلك بما كانوا يبثونه من الدعوة الى تأييد الثورة والالتحاق بها وبث أخبارها

بين الناس وتزييف الدعاية ضدها والتنويه بجبن ونذالة وخيانة المندمجين في هذه الدعاية ، وتصوير ما سوف يجني العرب من ورائها . وقد ساعد على ذلك سحب جمال بعد نشوبها بقليل والكف عن حركة الاضطهاد والاعتقال والتشريد .

وهكذا يصح أن يقال ان الفكرة العربية في ادوارها الثلاثة في عهد الدولة العثمانية والتي لم تستغرق من الوقت أكثر من عشر سنين (١٩٠٨ – ١٩١٨) قد خطت خطوات واسعة ، سواء من حيث مدى الأنتشار او من حيث الهدف وسعة شموله وتطوره ، أو من حيث الحركة والنشاط في سبيل ذلك ، أو من حيث اراقة الدم الزكي على أعواد المشانق او في ساحات القتال ، او من حيث الاستفادة من الفرصة السانحة والأقدام عليها بالعزم والتصميم .

وليس من ريب في ان هذا النجاح مظهر من مظاهر القوة التي امتازت بها عناصر القضية العربية على ما أسلفنا ، ودليل على الحيوية القومية الكامنة في العرب التي لم تكد تثار حتى ثارت ، وتدعى حتى استجابت الى الدعوة منذ اللحظة الأولى ، وأخذت تعمل وتنشط في شتى المجالات مما يندر ان يكون التاريخ قيد له مثيلاً في مثل هذا الامد القصير جداً ، ولا سيما إذا لوحظت المدة الطويلة جداً التي تقرب من الف عام ، والتي ظل العرب يترددون فيها من درك الى درك ، ويتعرضون لشتى الارتكاسات ويرضخون لتحكم الغريب ، ويستغرقون في سبات عميق من الغفلة والجهل والتسليم .

- ١٩ -

استدراكات وتعليقات

ومع ما قلناه آنفاً نرى ان الواقع والانصاف يوجبان ان نستدرك بعض الأمور:

فأولاً : أن هذه الصورة التي رسمناها تنطبق في الدرجة الاولى على الاوساط النيرة المثقفة من السياسيين والشبان والتي كانت ضيقة النطاق كثيراً ، وفي الدرجة الثانية على من كان يتصل بها من سكان المدن وخاصة الكبيرة منها ، وإن سواد الشعب العربي لم يتحسس تحسساً قوياً يسمح بالقول ان الفكرة قد مرت اليه ،

وكان لها تأثير فعال فيه خلال السنوات العشر المذكورة . وكل ما كان بالنسبة للسواد ان الحركة التي كان يضطلع بها المتنورون ، والدعوة التي كانوا ينشطون اليها قبل اعلان الحرب كانتا لافتتين للذهن ومنبهتين من السبات ، وان ما كان من احداث بعد اعلان الحرب سواء في سياق حركة التنكيل والقمع ؛ او في سياق اعلان الثورة الهاشمية واخبارها قد قوى هذا الالتفات والانتباه .

ونحسب هذا طبيعياً . فسواد الشعب الذي يسكن قسمه الأعظم البلدان الصغيرة والقرى والبوادي كان بمثابـــة المنعزل عن الحركات السياسية وتياراتها وأخبارها .

وثانياً : ان نفوذ الفكرة وقوتها في المتنورين والسياسيين والشبـــان كانت متفاوتة ؛ فبينما كانت عند فريق قليل منهم عقيدة تصل الى دفع صاحبها الى اقتحام الاخطار والتضحية بالنفس والمال ، وكانت شغلهم الشاغل ، كانت عند فريق ثان وهو الاكثر كلمات تلاك في الافواه دون أن يكون لهـا أثر نافذ في القلب ، بل وكانت عند فريق ثالث منهم أيضاً وسيلة استغلال وجاه ومنصب وتفاخر فحسب .

وثالثاً : ان فريقاً من رجال وشبان وضباط العرب الذين يعدون في الطبقة المتنورة وقضوا مدة طويلة في وظائف الدولة ومختلف بلادها واندمجوا في جو الدولة وبنيتها حتى صار بعضهم غريباً عن العرب والعروبة واللغة العربية أو كالغريب لم يستشعروا بالفكرة وقفوا منها موقف المتحفظ ومنهم من وقف منها موقف المتجهم او العدو المهاجم .

ورابعاً : ان اكثر طبقة الوجهاء والاعيان الذين اعتادوا أن يعيشوا في جو موظفي الدولة وأن يمارسوا الوظائف الحكومية والادارية الدائمة او الموقتة ، والفخرية وغير الفخرية كمجالس البلديات والاداوة والمحاكم والتخمين والضرائب والمعارف وغيرها ، وأن يستمدوا منها وجاهتهم التي كانت تكفل لهم المنافع المالية وغير الماليـــة ؛ وكذلك اكثر الذين هم في عداد هؤلاء من المحافظين والتقليديين والمشايخ وخاصة ذوي المناصب من هؤلاء – والطبقتان لاتعدان من سواد الشعب بل من الطبقات المنفتحة ذات الشأن – لم يستشعروا أيضاً بالفكرة ، ووقفوا منها موقف المتحفظ ومنهم من وقف منها موقف المتجهم أو العدو المهاجم .

فهذه الطبقات التي كان مفهوم الوحدة عندها هو الوحدة الدينية الاسلامية والتي كانت بتأثير القرون الطويلة التي قضاها العرب والترك في جو تاريخي وسياسي وعاطفي واحد فاندمجت في جو الدولة العثمانية راضية مطمئنة رأت في الدعوة الى الفكرة القومية العربيه وأهدافها بدعة مؤدية إلى اضعاف الوحدة الدينية او هدمها أولا ، ورأتها على هـذا الاعتبار تدخل في شمول ما أثر من التحذير من الدعوة الى العصبية ثانياً ، فوقفوا منها الموقف الذي وصفناه ، وأخذوا أو أخذ كثير منهم يغمزون الداعين اليها والقائمين بها من المتنورين والشبان ، ويرمونهم بالزندقة والالحاد وغير ذلك من التهم التي كانت رائجة شائعة في تلك الايام ؛ بل ومنهم من كان يعين الأتراك عليهم ، ويشمتون بما يقع عليهم من اضطهاد ويفتون بحل دمهم ، ويحاولون تأليب السواد عليهم ، ويدبجون المقالات وينظمون الاشعار الهجوية والشامتة فيهم؛ ومنهم من كان يفعل ذلك تزلفاً الى السلطات واستجداء لبرها أيضاً.

ومما يجدر ذكره أن الاتحاديين الذين اعتنقوا الفكرة القومية ونشروها ووقفوا من الخلافة الاسلامية والدين الاسلامي موقف التهوين بل والتهديم ، وقاوموا بل وبطشوا في مناوئيها منهم من لدن السلطان عبد الحميد وأعوانه إلى رجال الدين والمحافظين والتقليديين والمشايخ لم يقصروا في استثارة هذه الطبقات من العرب ضد القائمين بالفكرة العربية وحركتها بمختلف الاساليب والرشاوى قبيل اعلان الحرب ثم وسعوا جهودهم في هـذا السبيل بعده ، وخاصة بعد نشوب الثورة الهاشمية . ولا نزال نذكر الفتاوى التي كانوا يستصدرونها من علماء المسلمين في بلاد العرب ، والمقالات التي كانوا يستكتبونها لبعض كتاب العرب ضد الحركة القومية وضد الثورة الهاشمية . وتلك الاجتماعات التي كانوا يدعون الى الخطابة فيها بعض سياسي العرب وخطبائهم الذين وقفوا إلى جانب تلك الطبقات في التجهم والمناوأة ؛ وتلك التشكيلات التي كانوا يحيطونها بعنايتهم وبذلهم في صدد توثيق الوحدة الاسلامية والمظاهر الاسلامية في الظاهر ، وفي صدد مقاومة الدعوة القومية وتزييف أهداف الثورة واحباطها واضعاف أثرها ، والتهوين مما وقع على رجال الحركة من بغي وقسوة في الحقيقة وواقع الامر .

ومن الغريب الجدير بالتسجيل كظاهرة من ظواهر التناقض الاخلاقي والنفسي،

والاستغراق في التقليد والتسليم والرضاء بما كان ويكون ، وعدم الاستشعار بالعاطفة القومية ان هذه الطبقات التي اندمجت في جو الدولة والخلافة العثمانية ، ولم تستشعر إلا بالعاطفة الدينية وسياسة الوحدة الدينية كانت تلعن الاتحاديين الذين صدر منهم ما صدر ضد الخلافة والخليفة والدين ، والذين اعتنقوا الفكرة القومية التركية وسعوا جاهدين في سبيل توطيد الاستعلاء العنصري التركي على العرب . ولم يمنعهم هذا من الاستجابة لتحريض هؤلاء الذين كانوا يلعنونهم على بني قومهم الذين أثارتهم تصرفات الاتحاديين ، وجعلتهم يسيرون في طريق الفكرة والدعوة العربية .

على أن هذه الجبهة القوية التي تضامن فيها الاتحاديون وأموال الدولة ومناصبها وجاهها مع الطبقات النافذة المؤثرة المذكورة من العرب لم يكن من شأنها أن تخنق الفكرة أو توقف سير حركتها . فقد كانت طبيعة الفكرة وما بدا من قوة القابلية العربية للاستجابة السريعة إليها اولاً ، وحركة التنكيل الواسعة القاسية ثانياً ، وتصرف الاتحاديين مع العرب وحقوقهم ثالثاً ، وانتشارها في الأتراك رابعاً ، عوامل قامت في وجه هذه الجبهة وحملاتها . غير أن مما لا شك فيه كانت ذات أثر غير يسير في بقاء كثير من مرموقي العرب ونافذيهم واعيانهم وموظفيهم ومتنوديهم وعلمائهم في موقف المتحفظ المتجهم من الفكرة العربية وحركتها ، وفي إقامة العراقيل في طريقها ، وبلبلة الافكار في صددها ، كما أن آثارها ظلت فيهم مستمرة مدة غير قصيرة بعد انتهاء الحرب ، بحملهم الضغينة على الملك حسين وثورته والفكرة القومية ودعاتها ؛ بل ولقد تعدى اثرها بلاد العرب الى بلاد الهند فكان لها مثل هذه الآثار في اوساط الهنود المسلمين ايضاً .

ومع ذلك فان من الحق أن يقال إن هذه الآثار لم تكن ذات اثر ايجابي بعد نهاية الحرب ، وإنما ظلت ضمن نطاق الجدل والذكرى . فالبلاد العربية والأمة العربية صارت بعد الحرب أمام وقائع وأحداث لا محيد عنها ، فهي منفصلة عن الأتراك ، ولم يعد في هؤلاء رغبة أو مطمح فيها ، وقد انتهى أمر الخلافة وكثير من المظاهر والتقاليد الاسلامية إلى ما انتهى اليه على يد الكماليين ، وصار الكلام في الوحدة السياسية الجامعة بين العرب والترك لا محصل له في مجال العمل ،واضطر

العرب جميعهم راضين أو كارهين الى الانسياق مع التيار الجديد ، والتكيف بالواقع والسير فيه بما هو المتلائم معه نشاطاً وجهاداً ودعوة ونضالاً. ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن ما كان من غدر حلفاء العرب ونكثهم وسلوكهم الاستعماري الباغي ، وتجزئتهم بلاد العرب تلك التجزئة التي كان فيها الويل والشر على العرب وكيانهم وآمالهم واقتصادياتهم ، ورميهم العرب بالاضافة الى هذا كله باليهود وصبهم على رؤوسهم بلاء القضية الصهيونية والسياسة الصهيونية التي كانت منذ الأصل تتراءى فيها الاخطار العظيمة عليهم كان عاملاً كبيراً بل العامل الاكبر في استمرار آثار تلك الحملات إلى ما بعد الحرب بمدة غير قصيرة، بل الى ما بعد الانقلاب التركي الكمالي الذي جرف كل شيء يمت الى تلك الحجج والمجادلات .



الفصل الثاني

الحركة العربية

في العهد الفيصلي في الشام

الدور الاول ١ تشرين اول ١٩١٨ ـ ٧مارس ١٩٢٠

- ١ -

الحركة العربية في عهد جديد

وبانتهاء الحرب العالمية وانفصال البلاد العربيـة العثمانية عن الـدولة في اواخر عام ١٩١٨ دخلت الحركة العربية في ساحة جديدة ، تقلبت فيها على ادوار عديدة واطوار متنوعة ، من انقـاد وفتور ونشاط وتوقف ، وجذب ودفع ، ومناوأة ونضال، وآلام وآمال بسبب ما تعرضت له هذه البلاد من احداث ، وبتعبير ادق بسبب ما ظهر من حلفاء العرب من نكث وغدر .

ولقد كان من المأمول ان يشتد تيار الفكرة العربية قوة حتى تصبح سائغة مفهومة ، ثم تأخذ صفة العقيدة العامة في بلاد العرب، وتتجاوز افق المشرق العربي إلى المغرب العربي ايضـاً ، وحتى تصبح الناظم للحركات السياسية في جميع بـلاد العرب وتتحقق اهدافها كاملة في مدة اقصر من المدة التي استغرقها تطور امثالها في بلاد اخرى بعد ما كان من نجاحها في المدة القصيرة التي مرت عليها في عهد الدولة العثمانية ما كان ، لو حسنت نيات اولئك الحلفاء ، وقابلوا العرب على اخلاصهم باخلاص ، ولم يقيموا مـا اقاموه منعقبات ، ولم يجروا ما اجروه مـن تيارات معاكسة للفكرة ومناوئة لها بشتى الأشكال وفي مختلف المواطن العربية ، او لو لم يكن ذلك النقص الكبير في الثورة العربية الذي اشرنا اليه ، ورددنا ما ناب العرب اليه ، والذي تمثل في عدم وجود وبقاء قوى عربية كافية مسلحة مستعدة للاستمرار في نضالها الى ان تتحقق الأهداف الـتي استهدفتها الثورة او تحمل الحلفاء عـلى مسايرة العرب فيها وعــــدم التنكر لها والاستهانة بها .

خطورة عهد الشام

واول الكلام في صدد هذه الساحة الجديدة يجب ان يكون في عهد فيصل في الشام . فقد كان استمراراً للثورة التي توجت الحركة العربية بها ، وكان فيصل ابرز قوادها ، وخاصة من حيث انحملته ضمت عدداً غير قليل من رجال الحركة العراقيين والشاميين اولاً ، وانها كانت الوحيدة التي خرجت من الحجاز الى البلاد التي كانت مسرح الفكرة ومجال حركتها في عهد الدولة العثمانية ثانياً . ولقد ازدادت خطورة هذا العهد وخطورة واجبات رجاله بما واجهته البلاد العربية المذكورة من احداث وأخطار .

فقد احتل الانكليز اكثر العراق قبل الهدنة ، واخذوا يحكمونه حكما عسكريا هنديا ، ويرسمون الخطط لترسيخ اقدامهم الاستعمارية فيه . واحتلوا كذلك فلسطين وحكموها هي الاخرى حكما عسكريا ، وحاولوا أن يعزلوها عن سائر بلاد العرب ويجعلوها تحت سلطتهم المباشرة من جهة ، وعرف من جهة اخري ما كان صدر منهم من تصريح بلفور المشؤوم ، واخذت تبدو بوادر السير في السياسة اليهودية ، وتُسمع من زعماء اليهود تصريحات تدل على مايرمون اليه من بعيد المطامع ومخيف المرامي .

وبعد أن رفع العلم العربي على ربوع لبنان والسواحل السورية وقامت فيها حكومة عربية باسم فيصل جاءت الفصائل الافرنسية فاحتلتها ، واخذت تحكمها حكما عسكرياً من جهة وترسم الخطط التي ترسخ بها اقدام فرنسا الاستعمارية فيها من جهة ، وتكون رقبة الجسر الذي تقفز منه الى سوريا الداخلية وتشملها بنفوذها من جهة وتناوىء الحركة العربية في البلاد الشامية داخلا وساحلا من جهة . وما لبث الناس ان عرفوا أن هذا جميعه كان نتيجة للاتفاق المشؤوم المعروف باتفاق سايكس بيكو الذي خان الحلفاء والانكليز خاصة به العرب وعهودهم لهم بواسطة الحسين ولما يجف مدادها ، والذي جعلت به سوريا الساحلية ولبنان منطقة استعمار افرنسية وسوريا الداخليـة منطقة نفوذ افرنسية ، وشرق الاردن منطقة نفوذ انكليزية ، والعراق منطقة نفوذ واستعمار انكليزية ، وفلسطين منطقة دولية كان

وعد بلفور وسيلة ماكرة لتبديل هذه الصفة عنها .

ولم يبق ما يمثل الثورة العربية والحركة العربية والآمال العربية والدماء العربية غير الحجاز ، وغير سوريا الداخلية التي قامت فيها حكومة عربية عسكرية على رأسها فيصل ، والتي كان العلم العربي المربع الالوان يتموج فوقها وحدها (١) .

وبسبب ذلك كله صارت دمشق مزدحم اقدام رجال الحركة العربية السياسيين والشباب العرب من عراقيين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين ، ومناط املهم . فنشطت فيها الحركة العربية نشاطاً عظيما ، وغدت مركزاً للعمل على متابعة الحركة والنضال ومناوأة ما اخذ يبدو من مظاهر الغدر والمطامع والدسائس والالاعيب.

ولقد كان من اثر هذا النشاط من جهة ، ومن اثر ما احدثته بوادر الغدر في انحاء البلاد الشامية والعراقية الاخرى من رد فعل اليم من جهة ثانية ان صار العرب في هذه الانحاء يرون في دمشق وعهدها وفيصل وشخصيته مناط الأمل وموضع الرجاء ، وأن غدت دمشق عاصمة العرب الخالدة - منجهم الذي يتجهون اليه ، ويتعلقون بأحداثه وحركاته واخباره ، وتنتعش بما هو قائم فيها من حركة جياشة ومظاهر قومية قوية آمالهم التي كادت تتحطم أو بالأحرى كانت تتحطم بما رأوا مايوشك ان يحل فيهم من بلاء عصيب وظلام رهيب .

- ٣ -

منشور فيصل والحكم العربي في الشام

وبعد خمسة ايام من دخول فيصل للشام اي في ٥ تشرين الأول سنة ١٩١٨ اذاع منشوراً بتوقيع الشريف فيصل شكر فيه الشعب السوري على ما ابداه من العطف وحسن القبول لجيوشه المنصورة والمسارعة للبيعة باسم مولانا السلطان امير المؤمنين الشريف حسين ثم اعلنهم تشكيل حكومة دستورية مستقلة استقلالاً مطلقاً لاشائبة فيه باسم السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية ، وتوسيد القياد العامة للحكومة

---

(١) لم يرتفع على لبنان والساحل وفلسطين علم ما .

الى السيد رضا الركابي(١) ، وتشكيل ادارة عرفية للنظر في الامور التي يحيلها اليها القائد العام ؛ ثم وصى الشعب بالسكون والطاعة وحسن الانقياد حتى يثبت انه اهل الاستقلال، وانذر المشاغبين والمخالفين ، وقرر ان الحكومة قد تأسست على قاعدة المساواة والعدالـــة وانها ستنظر الى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وادیانهم نظراً واحداً لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي .

ولا ندري هل كان فيصل يدرك مدى وضعه الفني الذي هـو به قائد من قواد الحلفاء وتابع لقائد الحلفاء العام يتلقى منه الأوامر والتعليمات أو مدى وضع سوريا السياسي حينما اذاع منشوره المذكور وشيء من هذا السؤال وارد في صدر إعلان تشكيل حكومة سورية دستورية مستقلة إستقلالا مطلقاً وشاملة جميع البلادالسورية باسم السلطان امير المؤمنين ؛ والذي نعتقده انه لم يعن بهذه النقاط لأول وهلة . وأنه اذاع منشوره مستوحيا بما كان من عهود مقطوعة لوالده وبأنه قائد من قواد والده في الدرجة الأولى ، وبما كان من نجاح حملته ودخوله الشام دخول الفاتح الظافر ، وما أثار نجاح حملته ودخوله من حماس وأمـل ولقيه من حسن ترحيب واستقبال حافل . ومن الجدير بالذكر أن المنشور أذيع في إبان قيام حكومة شكري الايوبي الذي أرسل إلى بيروت لاقامة حكومة عربية في لبنان والساحل باسم فيصل والملك حسين وقبل ان تطوى الاعلام العربية من سماء هذه البقاع ؛ فكان ذلك على ما هو المتبادر يعني في ما يعنيه شمول الحكم العربي الشريفي على جميع انحاء سوريا باستثناء القسم الغربي من الأردن أي فلسطين ، كما ان من الممكن ان يكون مما أوحى باعلان الشمول عـلى الوجه الذي أعلنه .

وعلى كل حال فإن في المنشور محاولة لاحداث أمر واقع اعتبره فيصل ومستشاروه شيئاً طبيعياً ومعقولاً سواء كانوا مدركين لجميع نواحيه أو جـاء عملهم ارتجالياً . ومن المؤسف أنه لم يكن لفيصل قوة فيها بعض القناء تدعم هذه المحاولة الطبيعية المعقولة . ولو كان له ذلك أو لو تيسر ذلك في المدة التي وجد فيها في الشام لـكان من المحتمل كثيراً أن يتغير مجرى الحوادث في سورية الداخلية على الأقل .

---

(١) رضا الركابي كان جنرال اركان حرب في الجيش العثماني، وكان يوقع بتوقيع الحاكم العسكري العام او الحاكم العام وليس القائد العام .

ولا نعرف ماذا كان موقف الحلفاء الذين بيتوا الغدر واتفقوا عليه ازاء ذلك؛ ولكننا نعرف ان القائد العام ظل يعتبر فيصلاً قائداً تابعاً له يصدر له التعليمات والأوامر، وأن فيصلا كان يرجع إليه في مهام الأمور . وعلى هذا فاما ان يكونوا قد أبلغوا فيصلا أن منشوره لاحكم له فسكت على مضض وصدمته الحقائق الأليمة ولا سيما بعد ان اضطر الى تقويض دعائم حكومة بيروت العربية وطي العلم العربي من اجواء لبنان والسواحل ، واحتلال الافرنسيين هذه البقاع ؛ وهو ما نرجحه ، وإما أنهم لم يأبهوا له لأنه لم يكن من شأنه تغيير حقيقة الواقع في نظرهم ولا سيما أنهم مدركون أنهم المسيطرون على الموقف ، وان الحاجة ماسة إليهم في كل شيء ...

ومهما يكن من امر فإن فيصلاً ومستشاريه استمروا في الظاهر في السير بعض الشيء في نطاق محاولتهم ؛ حيث ظل فيصل معتبراً بمثابة رئيس دولة عربية مستقلة ، ومصدر قوتها الاعلى ، تصدر عنه الأوامر والمراسيم والتعليمات ، وتدور في ظله اداة الحكومة والحركة العربية معاً . وقد احيط بما يقتضيه هذا الاعتبار من أبهة الملك وبلاطه ومراسمه ، فكان قصره يسمى « البلاط » وكان له ديوان وحجاب وتشريفاتيون الخ ...

وقد انشيء دوائر حكومية مدنية رئيسية يقوم عليها مديرون ويجتمعون برآسة الحاكم العام كمجلس مديرين للتداول والبت في شتى شؤون الدولة ، وأعيد تنظيم فروع الادارة في العاصمة والملحقات التي كانت تشمل مناطق دمشق وحلب وحماه وحمص وحوران وجبل الدروز والكرك والسلط على انقاض الادارة العثمانية ووفق قوانينها . وحوول فيما حوول انشاء جيش عربي او بالاحرى نواة جيش عربي لأن فصائل الثورة لم تلبث ان انحلت على ما قلناه قبل . وقد كان هذا من الأمور التي أهمت القائمين بالعهد لشعورهم الشديد بالحاجة إلى جيش يدعم العهد ويساعده على السير في الخطوات التي تحقق أمل العرب وأهداف ثورتهم . وكان الانكليز يضعون العراقيل المتنوعة في طريق هذا المشروع ، وكانوا قادرين على الايجاب والسلب في هذا الشأن لأنهم كانوا المصدر الرئيسي تقريباً لتمويل الحكومة العربية وتموينها ، لما كانوا يحسبونه من عواقب في صدد السير في خططهم المبيتة ، ولم يكن للعرب في عهدهم الجديد مصادر أخرى تسد حاجتهم . وهذا مما

جعل هذا المشروع خاصة يسير سيراً متعثراً لا غناء فيه . ومهما يكن من أمر فان هذه الثغرة كانت من ثغرات هذا العهد وظروفه بل ورجاله ، لأنه لم يكن من المستحيل ان يفعل شيء ما لو بذل جهد قوي وعزم شديد وبصر سديد . ولقد كانت قيادة الحلفاء العامة تدفع للحكومة العربية مخصصات شهرية كبيرة تبلغ على ما اذكر مئة وخمسين الف جنيه مصرية في الشهر باسم حصة سورية من الجمارك ، وكان يجبى الى هذا مبالغ غير يسيرة من الضرائب المتنوعة في مناطق هذه الحكومة ، وقد كانت مبالغ بغير غيرة تنفق جزافاً أو كالجزاف كان في الامكان ان تختصر ويدبر امر التسليح بالمتوفر بطريقة ما . ولا مناص من ان نقول ان الانكليز ظلوا معتمد العرب ومستنصحهم ومرجعهم ومستلهمهم رغم ما كان يبدو منهم من بوادر تثير الريب والشكوك في النفس ، وكان هذا كذلك من الثغرات المهمة في هذا العهد ورجاله .

هذا ومن الحق ان نذكر ان الحكومة العربية بالرغم مما ظهر من واقع طابعها العسكري والموقت ومن وضع سوريا السياسي الحائر ، وبالرغم من الظروف والتيارات المتنوعة التي كانت تتقاذفها قد أخذت تسير في سبيل التنظيم والاصلاح سيراً حثيثاً . وقد كان لذلك ثمرات تبشر بالأمل في مختلف الفروع وخاصة في الادارة والتعليم . وفي هذا العهد أنشئت الجامعة السورية العربية في دمشق وأصبحت منهلاً لطلاب العرب على اختلاف بلادهم .

– ٤ –

جمعية الفتاة العربية في العهد الجديد

ولقد نشطت جمعية الفتاة في هذا العهد نشاطاً كبيراً . فتوطدت لها هيأة مركزية من البارزين من أعضائها . وأخذت توسع دائرتها وتقوي دمها ، وتنشيء فروعاً لها في سوريا الداخلية وغيرها من انحاء الشام ، وتتصل برجالها المتخلفين في انحاء البلاد الأخرى في سبيل تقوية العزم وإثارة العاطفة والتضامن على السير في اتجاه موحد . وقد انشأت فرعاً للدعاية والاستخبارات ، وأخذ هذا الفرع من



ذكرى في احدى ضواحي دمشق ٢٠ مايس ١٩٢٠

١- وصفي الاتاسي ٢- عادل العظمة ٣- احمد مريود ٤- رشيد الحسامي ٥- شكري القوتلي ٦- رياض الصلح ٧- المير بهجت الشهابي ٨- المير مصطفى الشهابي ٩- سعد الله الجابري ١٠- عفيف الصلح ١١- مسلم العطار ١٢- عزة دروزة ١٣- زكي التميمي ١٤- حسني البرازي ١٥- توفيق جالي ١٦- المير فايز الشهابي ١٧- رفيق التميمي ١٨- الدكتور احمد قدري ١٩- عوني عبد الهادي ٢٠- معين الماضي ٢١- توفيق اليازجي ٢٢- الدكتور سعيد طليع

ناحيته ينشيء الفروع والوكالات في مختلف الانحاء، ويغذيها بالأخبار والتوجيهات، ويتلقى عنها التقارير والاخبار في صدد ما كان يجري في مناطقها من مختلف التيارات والاحداث والحركات الداخلية والخارجية . وكان يتيسر للفتاة مساعدات مالية من فيصل تسمح لها بهذا النشاط وتسمح بالاضافة إليه بمد اليد بالمساعدات إلى بعض المنظمات والأندية الأدبية والسياسية العربية التي كانت تعمل في الاتجاه العربي في بيئاتها . وهكذا دارت دورة الدم القومي حية قوية بقدر ما تسمح به الظروف والامكانيات عن طريقها ؛ بل ولقد غدت بمثابة صاحبة العهد أو متبنيته؛ أي انها كانت القوة المؤثرة الفعالة في جل مظاهر العهد وأحداثه إن لم يكن كلها . فالرأس الاول فيصل كان منها، وكان البارزون من بطانته ورجال قصره منها ؛ وكان هو شديد الاتصال بهيئتها المركزية وبكثير من اعضائها حتى أنه لم يكد يخلو من بعضهم في جميع ساعات يقظته ؛ ولم يكن يقطع بشأن اويهم بعمل او يصدر امراً الا ويكون لهم رأي او يد فيه او علم به تقريباً : كما ان الهيأة المركزية كانت تقدم الاقتراحات وتبلغ القرارات في شتى الشؤون السياسية والادارية والتنظيمية له احياناً ولمن حوله من اعضائها احياناً بقصد الترويج والتيسير والتوجيه وكان رئيس الحكومة او الحاكم العسكري رضا الركابي الذي ظل في منصبه جل مدة العهد منها ؛ وكان منها كذلك رئيس الجيش الذي كان يسمى المستشار الحربي وهو ياسين الهاشمي. وهذان هما المنصبان المهمان في العهد قبل اعلان الاستقلال في ٨ آذار ١٩٢٠ . وماقلناه في صلات فيصل بالفتاة وهيأتها ورجالها يمكن ان يقال ايضا بالنسبة لها ؛ فقد كان الاتصال مستمراً بينها وبين الهيأة ، بل كان يصدف ان يكون كلاهما احياناً او احدهما عضواً فيها ، وكانت تقدم الاقتراحات وتبلغ القرارات اليها في شؤون الحكومة والعهد المختلفة الادارية والتنظيمية والدعائية وفي ترشيح الموظفين وخاصة كبارهم . وكان عدد غير قليل من كبار الموظفين من اعضاء الجمعية فكانوا اعواناً على تنفيذ مقترحات الهيأة وتوجيه الامور في الاتجاه الذي تقرره .

ولقد اهتمت لضم كبار الذين وسدت اليهم مصالح الحكومة في العاصمة والملحقات الى عضويتها ، واستمر هذا الاهتمام واتسع نطاقه وراء فكرة جعل موظفي الدولة الكبار والمهمين ولا سيما في العاصمة من المنتسبين اليها والداخلين في نطاقها ؛ وبالتالي وراء فكرة الهيمنة على دوائر الدولة من جهة وكون الموظفين

او المستوظفين هم على الاغلب الفئة المثقفة التي تصلح لاشغال الصفوف الأمامية في الحركة القومية ، والعمل على تحقيق اهدافها في نطاق دوائر الدولة وسلطانها من جهة اخرى. فأخذت تضم اليها وعلى الطريقة التي سارت عليها في عهد الدولة العثمانية والتي شرحناهـــا قبل من ترى فيه الأهلية الثقافية والذهنية والقومية ، وترشح للوظائف الشاغرة من تراه من المنضمين ؛ ولقد اشتدت هذه الرغبة الى ان خرجت عن حدها السائغ المعقول . فقد كان يرشح احياناً للعمل الحكومي بعض الاشخاص من جانب الأمير او رئيس الحكومة او من جانب له اعتبار ، ويرى الامير او رئيس الحكومة ضرورة الى تعيين المرشحين ، وكان اشخاص لهم وجاهتهم ومكانتهم في مكان ما ، ويرى من المناسب اسناد منصب اليهم ؛ وترى الهيأة المركزية ان تعيينهم امر مبرم ، فتسارع الى الاتصال بهم ومفاتحتهم وتحليفهم اليمين وضمهم اليها رسمياً .

ومن الحق ان يسجل على الفتاة انها ضمت اليها عدداً غير قليل بسائق هـــذه الرغبة وتلك الفكرة، وبتساهل غير متزن واكثر مما تسوغه خطورة الجمعية، وكان منهم المائع في اخلاقه وروحه وقلبه ووطنيته والانتهازي للفرص ، ومن هنا يفهم سرّ كون كثير منهم بقوا في وظائفهم وسايروا ادوار الاحتلال الافرنسي بعد انهيار العهد ، ولم يظهر فيهم احساس بالواجب القومي والنضال في سبيله او على الاقل مساعدة المناضلين بالقدر الذي يطيقونه ، بل ولقد كان منهم من اندمج في فصول بغيضة لعبها المستعمر الباغي ، ومنهم من كان ممثلا رئيسياً فيها .

ولم تقتصر رغبة الفتاة على ضم الموظفين والمستوظفين بهذه الطريقة الارتجاليـة بل سارت عليها في ضم اشخاص كانوا في تشكيلات اخرى وظهروا على المسرح اقوياء العارضة منساقة وراء فكرة ضم كل من فيه مزية ما لتكون محتكرة ولو بحسن نية للطبقة التي فيها قوة عارضة او مزية دافعة او نشاط وثقافـة بقطع النظر عن الروح والمزاج فكان من امر بعض هؤلاء انهم لم يندمجوا في الفتـــاة قلبياً وباخلاص وحسن توائق ، وظلوا فيها اجساماً غريبة ، ومنهم من جـــاهر بعدائها وعداء اخوانه فيها ، وظل يعتبر نفسه غريباً عنها معارضاً لها .

على ان هذا لم يمنع ان تكسب الفتاة في هذا العهد اعضاء جديدين من شبان وغير شبان وموظفين وغير موظفين ممن ازدحمت بهم دمشق سواء العائدون من

انحاء الدولة العثمانية التي كانوا مبعثرين فيها كموظفين وضباط او القادمون من انحاء البلاد العربية الاخرى للاشتراك او الاندماج في الحركة السياسية والنشاط الذي تمركز في دمشق زاخراً جياشاً ، وثبتوا على التجربـــة والايام وفنوا في اهدافها وامتزجوا باخوانهم فيها امتزاجاً فيه كل الاخلاص، وانطبعوا بطابعها وابلوا البلاء الحسن في ميادين الجهاد القومي التي قامت في مختلف انحاء البلاد العربية ومايزالون، واحتلوا صفوف الحركة العربية الاولى ومايزالون ، ومنهم من فاق في هذا كله كثيراً من الاعضاء القديمين ايضاً . واذا كان ليس في الوسع ايراد احصاء تام فاننا نستطيع ان نذكر جملة صالحة منهم لعلها تشتمل اكثرهم وفيها مختلف الألوان التي وصفناها .

اسماء المنضمين اليها في هذا العهد

هاشم الاتاسي حمص . ابراهيم هنانو حلب . يوسف العظمة دمشق . رشيد طليع لبنان . رضا الصلح بيروت . رياض الصلح بيروت . عفيف الصلح بيروت . عادل أرسلان لبنان. امين ارسلان لبنان. نبيه العظمة دمشق. عادل العظمة دمشق. ساطع الحصري حلب. احسان الجابري حلب. صبحي بركات انطاكية. طه الهاشمي بغداد . جميل الالشي دمشق. فوزي الغزي دمشق. ناجي السويدي بغداد. مصطفى برمدا حلب. جعفر العسكري بغداد . خالد الشهابي حاصبيا . عبدالرحمن شهبندر دمشق . سعيد طليع لبنان . رشيد رضا طرابلس الشام . صبحي الطويل لاذقية . يوسف ياسين لاذقية . عمر فرحات دمشق . محي الدين صادق دمشق . رشيد بقدونس دمشق . مصطفى وصفي دمشق . احمد اللحام دمشق . مصطفى نعنة دمشق . يحيى حياتي دمشق . احمد حلمي عبدالباقي فلسطين . حسن الحكيم دمشق . سامي السراج حماه . مظهر رسلان حمص . خير الدين الزركلي دمشق . عبدالقادر الكيلاني حماه . حسني البرازي حماه . هاني ابو مصلح لبنان . صبحي حيدر بعلبك امين التميمي نابلس . وصفي الأتاسي حمص . صالح قنباز حماه . محمد البارودي حماه . توفيق الشيشكلي حماه . عبدالحميد القلطقجي دمشق . سعيد الحسيني قدس . عبداللطيف صلاح نابلس . عارف الخطيب دمشق . توفيق الحياني حلب . محمود الفاعور . محمد علي دروزه

نابلس . توفيق البيسار طرابلس الشام . عارف نكد لبنان . يوسف حيدر بعلبك . مصطفي الشهابي دمشق . زكي الخطيب دمشق . تامر حماده المرمل . زكي قدرى دمشق . سامي العظم دمشق . علاء الدين الدروبي حمص . جلال زهدي دمشق . مسلم العطار دمشق . عبد الستار السندرومي طرابلس . محمد النحاس دمشق . ابراهيم مجاهد حلب . رضا الرفاعي حلب . نجيب الارمنازي دمشق . مصطفى الغلاييني بيروت . محمد خير جبله .

- ٥ -

وقداحتفظت الجمعية بسريتها من حيث المبدأ، غير ان اسمها بل وكثيراً من اعضائها ونشاطها واثرها في العهد لم يبق سراً بكل معنى الكلمة ، وغيرت نهجها فصارت تعقد اجتماعات شهرية عامة يشهدها اعضاؤها القديمون فقط ، اي المنتسون اليها في زمن الدولة العثمانية الى المدنة ، وسمي هؤلاء بالمؤسسين ، وكان يبحث في هذه الاجتماعات مختلف الشؤون وتوجه فيها الانتقادات للهيأة المركزية وتطرح فيها الثقة بها بحيث تسقط إذا لم تنل ثقة الاكثرية وبتجدد انتخابها . وحصر حق هذا الانتخاب في المؤسسين كذلك ،وظل الاعضاء الجدد اي المنتسبون اليها بعد المدنة يتلقون قراراتها وتوجيهاتها بواسطة معتمد خاص تختاره الهيأة وحسب ، وبذلك حفظ للجمعية بعض الوقار والخطورة والسرية .

حزب الاستقلال كمظهر خارجي للجمعية

على ان الجمعية رأت بعد حين وانسياقاً مع الظروف الجديدة ضرورة الى ايجاد مظهر خارجي وعلني لها ينشط في مختلف الميادين جهرة ، ويتسع في الوقت نفسه لضم اشخاص لا يحسن ان يكونوا في نطاق التشكيلة السرية ولكن يحسن ان تستفاد منهم ويتعاون معهم ، وينضمون الى ساحة نشاطها ويدخلون في دائرة توجيهاتها فأنشأت في اوائل عام ١٩٢٠ حزباً رسمياً باسم حزب الاستقلال العربي ببرنامج قومي يستهدف الوحدة العربية والاستقلال التام الشامل، وجعلت الانضمام اليه تابعاً لبعض المراسم مثل الترشيح والتقرير والتحليف والواجبات المالية ، واوجبت على جميع اعضائها القديمين والجديدين الانتساب اليه، وفتحت باب الدخول

فيه بمقياس واسع نوعاً ما ، فلم يلبث ان قام الحزب قوي الاسم بادي النشاط كثير الاعضاء ، وان ادخل فيه كثير من الوجهاء والاعيان وابناء الطبقات الاخرى الصالحين للعمل والنشاط فضلا عن اعضاء الجمعية ، وانتخبت له هيأة ادارية كثيرة العدد لتتسع لتمثيل اعضاء الحزب على مختلف فئاتهم ، ودخل في هذه الهيأة بعض أعضاء الهيأة المركزية للجمعية وبعض أعضاء الجمعيـــة الاقوياء الموثوقين ، وأسس الارتباط قوياً وثيقا بينهم وبين الهيأة المركزية ، بحيث تكون القرارات والاتجاهات والاعمال متوافقة متطابقة بين التشكيلتين أو بتعبير أرق بحيث تكون قرارات ومقترحات وحركات الحزب صدى لقرارات ومقترحات وتوجيهات الهيأة المركزية ، وهكذا دارت الالة الظاهرة قوية نشيطة ، واتجهت الانظار اليها وكان في ذلك وسيلة ثانية لحفظ سرية الفتاة حتى اختلط الامر على الناس ، بل وكثير من خواصهم فلم يعودوا يفرقون بين الجمعية والحزب ، ثم لم يلبث أن تلب اسمه لانه هو الذي دار على الألسنة فملا الأسماع والأبصار ، ولا يزال الامر كذلك الى اليوم

- ٦ -

تيارات وجبهات في داخل الفتاة

ولقد كان من شأن النفوذ الذي تمتعت به الفتاة في دوائر الامير والحكومة وفي ميادين النشاط والعمل والحركات الاخرى ، والذي صارت به كما قلنا صاحبة العهد أو متبنيته ان أوجد تيارات او جبهات متنافسة في داخل الجمعية وخاصة في نطاق المؤسسين ، وكان من اثر ذلك أن سجل عليها بعض الاحداث الانشقاقية التي ظلت مظاهرها وعواملها واثارها النفسية والمادية تنخر في جسمها ، وتظهر للعيان في مختلف المناسبات ، وأن ثبت بذلك أنه كان في داخل ذلك النطاق بعض العناصر التي اتبعت هواها ورضخت لانانيتها ، وأظهرت إستعدادها للاندفاع وراء هواها وأنانيتها مهما كان لها من نتائج خطيرة على كيان الجمعية التي اعتزوا بها ، وبالتالي على حياة الفكرة والحركة التي اندمجوا فيها في عهد الدولة العثمانية . ولقد لعب الكيد والمكر والحسد والطمع دوره في هـذا الميدان ، فكانت تتعدد الاجتماعات وتحتدم فيها المناقشات والانتقادات ، وتتجدد فيهـا الانتخابات مما هز

بنيان الجمعية هزاً ، وقد عمل على تقوية هذا التنافس بعض الذين كان في أيديهم زمام الامور الرسمية الحكومية رغبة في إضعاف هيمنة الجمعية عليهم والتقليل من نفوذها وضغطها، ومقابلة لما أوادته بعض هيئات الجمعية من إحباط مشاريع شخصية استغلالية أراد هؤلاء الذين كان زمام الأمور الرسمية في أيديهم تنفيذها لمنفعتهم ومنفعة بعض المتآمرين معهم من أبناء القناة . ومما يلفت النظر أن الذين مثلوا الدور السيء في هذا الموقف هم من الذين انضموا إلى الجمعية بسائق الضرورة وبان عوارهم في الطمع وحب الظهور والاستغلال منذ أول العهد الفيصلي، والذين كانت الجمعية وظلت عرضة للنقد والتجريح بسببهم . والقصد الذي نقصده من ذكر ذلك هو العبرة التي يجب أن يعتبر بها في صدد تأسيس التشكيلات وخاصة السرية الخطيرة، ولذلك لم نشأ ولم نر من المصلحة أن نذكر وقائع وأسماء . فلا ينبغي والحق يقال أن يكون في التشكيلات الوطنية وخاصة الخطيرة والسرية الامن كانت أخلاقه الخاصة والعامة مضمونة مجربة فضلا عن التوافق المزاجي والافقي والخططي الذي هو مضروري جداً للانسجام والانتاج. وفي هذه الحالة عبرة أخرى حيث ظهر أن كثيراً منا لا يلبثون أن يتخلوا عن ما ظهروا به من حماس وإخلاص وتجرد في بعض الظروف الحرجة حينما يبدو لهم في ظروف أخرى ميسورة مأكلة أو مطمع أو فرصة استغلال . ومن المؤسف إن هذا كثير الوقوع إلى الان بالرغم عما مر من الزمن ومرده الى ضعف بنيتنا الاخلاقية والاجتماعية .

مآخذ على القناة في عهدها الجديد

وليس هذا كل ما يمكن أن يسجل على الجمعية من مآخذ وأحداث غير سليمة . فقد كانت ضعيفة في صدد توطيد النظام الصارم في بنيانها، فلم تستطيع أن تستعمل الصرامة مع أعضائها الذين بان عوارهم ليس فقط في مجال الطمع والحسد والظهور والاستغلال بل وفي مجال الاخلاص لمبادىء الجمعية وعينها وكيانها ، وخاصة في مجال الاتصال بالاجنبي والتعاون معه في سبيل النفع الخاص أو اصطناع اليد أو في سبيل ما يسميه بعضهم اجتهاداً . فكيان أي تشكيلة وخاصة الخطير منها لا

يمكن أن يبقى قويا سليما الا إذا سير فيها بصرامة وحزم ، وخاصة مع الذين يحاولون إستغلالها أو يهدمون بنيانها أو يلوثون كرامتها أو يخونون يمينها ومبادئها بصورة من الصور ، كما أن الاجتهادات الخاصة والشخصية والفردية لا يجوز أن يكون لها مكان في مثل هذه التشكيلات بل وفي أي تشكيلة ، لان التضامن التام والفناء في المبادىء والطاعة لمقررات السلطات العليا فيها هو جوهري وشديد الخطورة في حيويتها وحياتها وقوتها وبقائها . ولعل هذا الضعف هو الذي أدى الى ما كان من طمع وحسد وحب ظهور واستغلال من بعض الاعضاء ومؤامرات ومكائد في داخل الجمعية . ولو سارت الجمعية بقوة وصرامة مع المنحرفين على ما نظن لدرىء كثير مما طرأ على بنيانها من وهن وعلى تماسكها من تراخ وما قام في داخلها من تيارات ومكائد من جهة ، ولامكن حفظ اسمها ناصعاً لا يعلوه غبار ولا يلحق به نقد وتجريح وغمز ، ولما استهتر بعض المنتسبين اليها فيما بعد بالمبادىء والكرامة والحقوق القوميه وسايروا الاجنبي الباغي ومثل بعضهم معه الأدوار الرئيسية التي مثلوها من جهة اخرى . ومن المؤسف كذلك أن هذا لا يزال كثير الوقوع بالرغم عن ما مر من زمن ، ومرده كذلك الى ضعف البنية الذي ذكرناه آنفاً .

وينسحب على هذا بل ويمكن أن يكون قد نشأ عنه ما كان من عدم تقيد بعض الاعضاء بقرارات هيأة الجميه المركزية ، وبالاتجاهات العامة التي كانت تتقرر في اجتماعات المؤسسين . وقد كان منهم من يفعل هذا انانية واستهتاراً واندفاعاً وراء الغرض ، ومنهم من كان يفعله عن حسن نية ، وكلاهما يعزو عمله الى الاجتهاد وعدم الاقتناع والخطأ في هذا الموقف قائم بالنسبة للفريقين بدون ريب ، لان في التصرف اخلالا بالنظام واضعافاً للتضامن الواجب فليس من الممكن في أي تشكيلة أن تكون القرارات بالاجماع دائمـــاً أو غالباً ، أو أن يشهد الاجتماعات جميع الاعضاء . والنظام الحزبي يقضي دائما بأن تكون الاقلية تبعاً للاكثرية . وليس للاقلية أن تحبط قرار الاكثرية أو تعطله أو تناوئه أو لا تنفذه ما دامت مستمرة في الانتساب الى التشكيلة . وفي التشكيلات السرية الخطيرة لا يرد أن الاقلية المخالفة تنفصل عنها وتتحرر باجتهادها . فخطورة هذه التشكيلات وخطورة مقرراتها تملي واجباً أخر هو الطاعة والتضامن من الجميع ، وتملي موقفا أخر هو موقف الحزم والصرامة من الشاذين . والقصد الذي قصدناه من الكلام هنا كذلك هو الاعتبار والتنبيه . ولذلك لم نشأ ذكر الاسماء والاحداث .

وبما يمكن تسجيله على الفتاة كذلك ما دامت مناسبة الكلام عنها قائمة تراخيها في تماسكها الرسمي بعد عهد فيصل وعدم استمرارها فيه بدأب ونشاط على شدة الحاجة الى هذا التماسك واقتضاء ظروف النضال المديد والشديد له. فالقضية العربية بعد هذا العهد صارت تقريبا الى نفس الظروف التي الهمت تشكيلها ان لم تكن أدق منها وأشد خطورة لتنوع مجالات النضال واتساعها وصعوباتها ، ولم ينقطع النضال على اختلاف أساليبه في سبيلها بعد هذا العهد في داخل البلاد وفي خارجها. وكان أبناء الفتاة من العاملين المؤثرين في مختلف ميادين هذا النضال . فكان من الضروري أن يظل كيان الجمعية الرسمي قائما كما كان فضلا عن ضرورة التوسع في التشكيل والتنظيم والتدعيم . والراجح أنه كان لنتائج أحداث الشام وخاصة لما كان من مكائد وتيارات وتنافس في داخل الجمعية رد فعل في نفوس كثير من أعضائها ثبط من هممهم وأضعف من عزائمهم وجعلهم في وجوم وبلبلة وانكسار ، ولم يشجعهم على استئناف العمل ضمن كيان جمعيتهم ونظامهم ، مع أنه كان بينهم فئة صالحة ظلت على اخلاصها وروحها وقلبها وتفانيها في سبيل القضية واهدافها ، وظلت متوائقة متحابة فيما بينها أيضاً . ونعتقد انهم وخاصة هذه الفئة لو فعلوا ذلك لكانت القضية العربية استفادت فوائد كبرى ، ولكان لها تشكيلة قوية صالحة مجربة أسبغ عليها التاريخ خطورة لا تنكر ، ولكانت اتسعت مع الزمن وشملت الصالحين العاملين من الشباب والكهول الذين برزوا في ميادين الحركة والنضال، وتكشفوا عن استعداد وموهبة ورغبة صادقة ، ولما كانت الجهود ترتجل ارتجالا ، والعزائم تتقدحينا وتخمد حينا، ولكانت أثرت تأثيراً غير يسير في تصحيح الاتجاهات الاقليمية التي سار فيها بعض الفئات الوطنية، وفيهم نخبة من أبناء الفتاة الصالحين ، ولما كانت الصلات تفتر أو تنقطع أحيانا بين العاملين في مختلف الميادين وتضطر كل فئة الى العمل في نطاق محدود أو فورات مرتجلة . وتبدو خطورة هذا المأخذ على الفتاة إذا ما لوحظ أنه لم يقم مقامها تشكيلة قومية عامة وشاملة ناجحة تشتغل بصورة مستمرة وجدية في سبيل الهدف القومي العام الذي يتجاوز الافق الاقليمي،

والانهماك في القضايا المحلية التي شغل بها العرب نتيجة لكيد الاجنبي واملائه وتوجيهه وأسلوبه ، وان هذا النقص كان وما يزال من أهم ما نراه من مظاهر ضعف التيار والحماس القومي ومن مظاهر التفكك بين العاملين وجهودهم .

نقول هذا ونحن نعرف ان فئة من ابناء الفتاة حاولت بعد قليل من سقوط الشام وبكلمة ادق في عهد عمان الاول ان تستأنف النشاط على اساس التشكيل الرسمي السري ، وانتخبت هيأة مركزية واخذت تسير على غرار دمشق في اجتماعاتها وقراراتها وتوجيهاتها ، وكانت تفرض نفسها في ميدان عمان ، وضمت بعض الصالحين من الفلسطينيين والاردنيين اليها . غير ان هذه المحاولة كانت محدودة الامد والنطاق والمجال اولا ، ولم يكتب لها الاستمرار فضلا عن الاتساع او الدعوة الى ضم الشتات وجمع الشمل ثانيا حتى ان كثيراً من ابناء الفتاة القديمين والحديثين الذين تبعثروا في الاردن وفلسطين ومصر والعراق والشام لم يعرفوا عن نشاطها شيئا . ولم تقم للفتاة قائمة كيان رسمي آخر بعد ذلك . وكل ما كان من امر ان بعض اعضاء الفتاة وحزب الاستقلال كانوا يتعاونون احيانا وفي بعض المجالات الوطنية والمحلية ، وظلوا على توادهم وتوائقهم الشخصي وما يزالون . وكان لهذا وذاك فوائد غير يسيرة في ظروف النضال القومي في مختلف الميادين

وكذلك نقوله ونحن نعرف ان محاولات عديدة حوولت لايجاد تشكيلات قومية شاملة تسد الفراغ الذي ظل واسعا مؤسفا وما تزال تحاول . غير انها لم تثمر الثمرة المنشودة ، ولم يكتب لاحداها الى الان نجاح او استمرار او قوة من شأنها سد الفراغ . ومرده في ما نعتقد الى البيئة الاستعمارية الاقليمية التي اضطر الجيل الجديد ان يحيا فيها بعد عهد الشام ، وعدم استناد تلك المحاولات الى ايمان قوي عميق في قلوب القائمين بها أو بعضهم يجعلهم يصمدون لمختلف العثرات والعقبات والصعوبات ويتغلبون عليها بالدأب والتجرد والتضحية والصبر، ويسري الى غيرهم مما له صلة ايضا بضعف بنيتنا القومية الذي اشرنا اليه قبل .

- ٧ -

ونقص آخر يتراءى لنا في بنيان الفتاة ويمكن أن يعزى اليه ما كان من أحداث موهنة ، وما صارت إليه من تراخ في تماسكها واستمرار في دأبها في نطاق

كيانها الرسمي وهو فقدانها « الزعيم » . فالمعتاد في التشكيلات السياسية النضالية والحركات الوطنية الخطيرة وخاصة السرية منها أن تقوم على أكتاف زعيم موهوب قوي الشخصية والروح والقلب واللسان ، عميق الايمان بقضيته وزعامته ، حليم من غير ضعف ، بسيط من غير سخف ، بار لين واسع الأفق ، ينفخ في من حوله من الأصدقاء ذوي القلوب الطيبة والرغبات الصادقة والنوايا الصالحة ، فتتكون الحلقة ، ويكون هو قطب رحاها ومدار حركتها وناظم سلسلتها ، كلمته الحاسمة في الأزمات وخطوته المتبعة في الملمات ، وصوته المسموع وأمره المطاع ؛ لا يضعف ولا يني ، ولا يسف ولا يسخف ولا يتبلا ذهنه وتستغلق عليه الأمور في الطوارىء والأحداث المفاجئة ، ولا يستعبده هواه وأنانيته ، ومطامعه وأسرته ، تستمد الحلقة من روحه وقلبه وعقله وشخصيته ومواهبه وايمانه وجرأته وتجرده ، ويستمد هو منها قوته وعزيمته وخطواته ؛ فيكون التضامن الوثيق ، والتساند المتين ، والدأب المثمر ، والجد المستمر ، والبطولة الرائعة والأدوار البارعة ؛ ويظل هو الراية المرفوعة التي يتجمع حولها المخلصون ، والمنارة الوهاجة التي يستضاء بها في الظلمات ، والعمود الذي يحفظ للبنيان ثباته أمام الزعازع والعواصف .

أما الفتاة فلم يكن لها هذا الزعيم القوي الموهوب ؛ وإنما كانت حلقات متقاربة السوية ، ومن مجموعها ونظامها وانسجامها وخطورة الظرف الذي وجدت وعملت فيه تكوّن اسمها ، واستطاعت أن تقوم بما قامت به وأن تصل الى ما وصلت اليه من النجاح والبروز . وقد ظلت قوية متماسكة ما دامت حلقاتها متصلة ببعضها ، فلما انفصمت العرى لم يكن لها ذلك العمود الذي تقوم عليه فيحفظ بنيانها من الانهيار ، والراية المرفوعة التي تتجمع حولها الفلول ، والروح القوية المؤمنة التي تنفخ في الأرواح الواهنة والعزائم الواهية ، وتعيدها الى التماسك والترابط والدأب والنشاط .

نقول هذا ونحن نعرف أنه كان بين أبناء الفتاة بعض الشخصيات القوية اللامعة التي كانت تفرض نفسها في عهود الجمعية الأولى وفي عهد فيصل ايضا . ومن هذه الشخصيات من استطاع أن يفرض نفسه في محاولات أخرى بعد هذه العهود أيضا . غير أنها على ماثبت لم تكن لتستطيع أن تمثل في الفتاة دور الزعيم المطلوب ،

وأن تكون القطب من رحاها والعمود من بنيانها والراية المرفوعة من جيشها ، وقد يضاف الى هذا عدم ايمانها العميق بفكرة التشكيل والتنظيم ، واعتدادهـــا بفرديتها وفقدها الروح الاجتماعية التي لا بد منها للزعيم .

ومن المؤسف ان الحركات العربية طيلة دور اليقظة الجديد لم يقسم لها زعيم متصف بتلك الصفات . وهذا هو سبب الفشل الأليم الذي منيت به هذه الحركات، ومنيت به كذلك محاولات سد الفراغ العديدة التي حاولها الجيل الجديد ايضا . فمسألة الزعيم في التشكيلات السياسية والنضالية الخطيرة مسألة جوهريه حيوية ، وما يمكن أن تلقاه هذه التشكيلات من نجاح وفشل وتقدم وتقهقر ، وتماسك وتراخ مرتبط في ما نعتقد بهذه المسألة أشد الارتباط . والمدقق في الحركات القومية النضالية في الغرب يرى مصداق هذا في تاريخ بلدان كثيرة كإيرلانده وبولنده وايطالية وألمانية . وقد كان في الشرق امثولتان عظيمتان من ذلك تمثلتا في كمال آتاتورك والحركة الوطنية الاستقلالية في تركيا الحديثة ، وفي غاندي والحركة الوطنية الاستقلالية في الهند . ولقد تمت على يدي هذين الزعيمين العظيمين الموهوبين معجزة خارقة ما كانت لتتم لولا اتصافهما بصفات الزعيم القوي في ايمانه وقلبه وعقله وروحه وإقدامه ودأبه وتجرده وتضحيته .

ولقد جاء ظرف اقتنع فيه كثير من إخواننا العاملين في ميدان النضال القومي بضرر هذه الأساليب البرلمانية السائدة على تشكيلاتنا وحركاتنا ، وهذه المساواة في المراكز والشخصيات والحلقات التي تتكون منها تلك التشكيلات وتقوم عليها هذه الحركات ، وبخطورة نقص الزعامة فيها ؛ واقترح بعضهم التواطؤ على إقامة « زعيم » يأمر فيطاع ويسير فيتبع ، ويقول الكلمة في الأزمات فتكون الحاسمة وفصل الخطاب ، ويهتف فتتجاوب الأصوات بتلبيته دون حجاج ولجاج . ولكن هذا كان بمثابة المزاح الممزوج بالألم اكثر منه في مقام الجد والجدوى ؛ لأن الزعيم لا يخلق خلقاً صناعيا ، ولا ينتخب انتخاباً برلمانياً وخاصة في ظروف الأمم النضالية والقومية ؛ وإنما يكون له من صفاته وروحه وعقله وشخصيته وايمانه وسعة افقه وحزمه وجلده وقوة عارضته وألمعيته وتاريخه ونزاهته ما يساعده على فرض نفسه، وحمل الناس على تأييده والالتفاف حوله ، واتباعه والفناء فيه بعقولهم أو بقلوبهم

أو بها معاً . والنجاح الذي يمكن ان يلقاه الزعيم أو من يترشح للزعامة أو يتصدر لها يظل دائماً متناسباً مع ما يمكن أن يكون عليه من حظ يسير أو كبير من هذه الصفات والمزايا .

- ٨ -

حملات ضد الفتاة وتعليقات في صددها

هذا ، وقد كانت الفتاة عرضة لحملات وانتقادات في عهد فيصل واستمرت هذه الحملات والانتقادات بعده على حزب الاستقلال الذي غلب اسمه اسمها بسبب تبنيها العهد ، وما يمكن أن يكون صدر منها أو من بعض أعضاء من الأخطاء . ومع أنه قد يكون صدر منها أو من أعضائها أخطاء وتصرفات غير سليمة تستحق النقد مما هو طبيعي بالنسبة لأي تشكيلة تتبنى عهداً وتكون حكومته منها ، وتحاول أن تكون المؤثرة في كل شيء وأن لا يكون شيء إلا بموافقتها ورضائها ما أمكنها ، فانه من الحق أن نقول كذلك إن هذه الحملات لم تكن جميعها نزيهة مجردة ، وإنه كان لسوء النية والروح الاقليمية والأنانية من جهة وللدسائس الأجنبية من جهة اخرى أثر كبير فيها . فكثير من أصحاب الوجاهات والزعامات المحلية الذين قامت وجاهاتهم على ما كان لهم من نفوذ وكلمة في دوائر الدولة العثمانية تيسرت لهم بالأساليب القديمة المعروفة قد أغاظهم أن لا يتمكنوا من الاستمرار في استغلال وجاهاتهم وزعاماتهم على الوجه الذي اعتادوه ، وأن يروها في طريق الزوال، وأن يبرز على المسرح أناس أو بالأحرى شبان فيكونوا أصحاب النفوذ والتأثير في دوائر الدولة ورجالها ، وأن يكون نصيبهم الانزواء أو ما بمثابته . وكثير من طلاب الوظائف والمناصب والظهور لم ينعموا بما أرادوه فاعتبروا الفتاة خصماً لهم . وقد اغتنم هؤلاء واولئك فرصة كون كثير من أبناء الفتاة غير سوريين ، فحاولوا أن يجدوا في هذه النقطة ثغرة لاثارة النعرة الاقليمية والعصبية المحلية في الأوساط العامة ولقد كان من آثار ذلك أن أقدموا على تأسيس حزب سموه الحزب الوطني السوري وعرف باسم حزب الذوات استهدافاً لتوطيد مراكزهم المهددة . وقد اندمج في

هذه الحركة بعض أعضاء الفتاة من المؤسسين ممن ينتسب الى تلك الطبقة ، وكان سكرتيره من هؤلاء المؤسسين ايضاً اندفاعاً وراء ما سجلناه في مناسبة سابقة من أنانيات ومؤامرات ومكائد في داخل الفتاة . .

ولقد كان عهد فيصل مجالاً عجيباً لمختلف التيارات الأجنبية وكان كل تيار متعاكساً مع الآخر يحاول أن يؤثر في هذا المجال ويجرف ما يجده أمامه ؛ وكانت الدسائس والدعايات والأموال الأجنبية تلعب أدوارها الفظيعة في هذا المجال المتعاكس التيارات . ولما كانت الفتاة تمثل الفئة الوطنية المتطرفة ، وقد غدت الحملات المضادة للدسائس الأجنبية التي كانت تهدف الى التشويش على عهد فيصل ، وإضعاف المقاومة والصلابة القومية فيه إزاء المطامع الاستعمارية وتهديه في النهاية وبسط السيطرة على سوريا الداخلية فمن الطبيعي جداً أن يكون لتلك الأموال والدسائس أثر كبير في تلك الحملات ايضاً . ولعل جعل هذه الفئة موضوعاً رئيسياً في إنذار غورو بين يدي بغيه العملي الذي هدم به العهد على ما سوف نذكره بعد من الدلائل القوية على ما نقول .

ومما لا ريب فيه أن فشل العهد وانهياره قد كان كذلك من وسائل هذه الحملات من قبل خصوم الجمعية الموتورين الذين أشرنا اليهم ومن أسباب استمرار آثارها بعد عهد فيصل الى أمد غير قصير .

وإننا لنقول الحق ولسنا متأثرين بالعصبية الحزبية أن الجمعية كانت في الاجمال متشبعة بفكرة الخدمة المخلصة للعهد ونجاحه، وكانت لاتألو جهداً في سبيل ذلك ؛ وإن ما كان من أخطاء وتصرفات غير سليمة قد صدرت عن حسن نية ؛ أو من بعض الشاذين من أعضائها مما لا يصح أن يوجه من أجله اليها اتهامات تتصل بالمبادىء والأهداف القومية أو بصدقها وإخلاصها وجهودها .

ومما يحسن أن يسجل في هذا المقام أن العصبية الاقليمية لم تظهر بين أبناء الفتاة وصفوفها ظهوراً من شأنها أن يؤثر في كيانها ، وأنها حاولت دائماً أن تظل على شمولها ونجحت في محاولتها نجاحاً غير يسير ظل أثره قوياً بعد انفصام عروة كيانها الرسمي في نفوس الذين اجتمعوا تحت لوائها واسمها على اختلاف أقاليمهم وطبقاتهم وظل معناه قائماً في هذه الصميمية الأخوية الموجودة الى الآن بين أكثر رجال

الجمعية من سوريين وعراقيين وفلسطينيين ولبنانيين ، وفي هذا التمازج والتعاون والتضامن والتوائق في كثير من الأعمال والأحداث والحركات القومية التي حدثت الى الآن في مختلف الأقطار بحيث يمكن أن تقرر صحة العقيدة القومية وقوتها في الحركة العربية الأولى وفي أشخاص عدد غير قليل من رجالها .

– ٩ –

حزب العهد في العهد الجديد

والمناسبة تسوقنا الى ذكر ما كان من أمر حزب العهد صنو الفتاة في الحركة العربية السرية ، وحزب اللامركزية .

أما حزب العهد فقد استطاع أن يحتفظ بكيانه الى نهاية الحرب ، وكان كثير من أعضائه قد التحقوا بالثورة ثم تكتلوا في حملة فيصل ودخلوا الشام معها . وما لبث الحزب أن انشطر الى شطرين عهد سوري وعهد عراقي . وقيل في سبب ذلك إنه قام بعض المنافسات والخلافات الشخصية بين أعضائه العراقيين والشاميين أثناء الثورة انقلبت الى نعرة إقليمية أدت الى ذلك الانشطار . ولعل مما سوغه لديهم ما بدا من علائم انفصال قضية الشام عن قضية العراق في المصير السياسي ، واعتقاد كل فريق بوجوب توجيه جهوده لتحرير بلده وإنقاذها . ومهما يكن من أمر فان هذا الحادث أول افتراق إقليمي في تشكيلة قومية كانت شاملة المدى ، وقد انكشف به ناحية من نواحي ضعف البنية القومية الاجتماعية .

ولقد كانت الفتاة في أثناء الحرب قد ضمت اليها عدداً من ضباط حزب العهد العراقيين والشاميين ، فاندمج الذين وجدوا في دمشق في العهد الفيصلي في نشاط الفتاة وحركاتها من جهة ، ووجه العهديون العراقيون جهودهم واهتمامهم للعراق ووسائل انقاذه بالتعاون مع الفتاة من جهة اخرى .

على أن العهد السوري ظل يحتفظ بكيانه ، ولكنه لم يقم بدور ايجابي متصل بطبيعة طابعه في صدد الحركة النضالية في العهد الفيصلي كما فعل العهد العراقي . وكل ما كان من أمره أن أعضاءه او كثيراً منهم كانوا موظفين في التشكيلات الحربية الحكومية .

ومع ذلك فقد مثل بشكل ما دور المعارضة للفتاة التي كانت قابضة على زمام الامور، وضم اليه بعض المدنيين منهم حسن الحكيم وحسني البرازي اللذين كانا عضوين في هيأته الادارية. وقد اعتبرته الفتاة كذلك، وكانت تتصل به وتتعاون معه في الازمات والمشاكل والمواقف العامة القومية على هذا الاعتبار. ولقد كان بعض العهديين السوريين الذين هم اعضاء قديمون وحديثون في الفتاة اعضاء في هيأة ادارة الحزب، فكان هذا مما ساعد على هذا التعاون.

ومن المؤسف ان ما كان من انحلال عروة الفتاة الرسمية بعد انهيار العهد الفيصلي قد جرى لحزب العهد بشطريه السوري والعراقي، حيث لم يلبثا هما الآخران أن انحلا، ولم يستمر اعضاؤهما في نشاط ونضال ضمن كيانها الرسمي.

حزب اللامركزية وحزب الاتحاد السوري

واما حزب اللامركزية الذي كان له دور ردوي في سياق الحركة العربية في عهد الدولة العثمانية قبل نشوب الحرب فانه تضاءل وانطوى بعد نشوبها؛ ولا سيما ان تنكيل الاتحاديين وبغي طاغيتهم جمال قد تناول بعض اركانه الذين وجدوا في داخل بلاد الدولة؛ كما ان أحكام الاعدام الغيابية قد شملت اكثر اعضائه في خارجها؛ ولم يعد له مجال في نطاق نظامه؛ غير ان سنورس الذي كان يشتغل في المخابرات الانكليزية اتصل ببعض اقطابه وجرت احاديث حول وجوب تعهد بريطانيا باستقلال البلاد العربية مقابل تحريك العرب وتوجيههم في طريق التعاون والتضامن ضد الدولة، ولكن هذه الاتصالات لم تنته الى نتيجة حاسمة، حيث تمركزت اتصالات بريطانيا بالحسين وظلت متصلة الى نهايتها الحاسمة المعروفة.

على ان الحزب ظهر في مجال آخر وظهر معه منهجه اللامركزي أيضاً، وذلك في تشكيله حزب الاتحاد السوري الذي كان له بعض الأدوار في العهد الفيصلي.

ولقد تأسس هذا الحزب في مصر في اواخر عام ١٩١٨، وكان الشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم والدكتور عبدالرحمن الشهبندر وهم من مؤسسي الحزب قد ذهبوا إلى الحجاز بعد إعلان الثورة بمدة ما، واجتمعوا بالحسين ثم زاروا فيصلاً في

مركز قيادته في مشارف الشام ورجعوا إلى مصر غير راضين عن الحركة وعن الحسين وفيصل ، لعدم انصياعهم لاقتراحات وتوجيهات ابدوها ، فجمعوا فريقاً من الساسة الشاميين ومنهم بعض أركان حزب اللامركزية وتشاوروا في شأن مصير البلاد العربية فقرروا تقديم مذكرة لبريطانيا بطلب توكيدها استقلال البلاد العربية وإدارتها على اساس اللامركزية ، مذكريها بما للامة والبلاد العربية من مركز مادي ومعنوي خطير ، وما كان من حركاتها وأهدافها التحريرية في الدولة العثمانية ، وما كان من أثر الثورة العربية في الحرب . وقد وقع المذكرة كل من رفيق العظم والدكتور عبد الرحمن شهبندر وفوزي البكري والشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم ومختار الصلح وحسن حماده . وقد تلقوا جواباً عليها فيه عهد بمساعدة بريطانيا في نيل البلاد العربية المحررة استقلالها ، واشارة الى ما كان من اعترافها باستقلال البلاد التي تحررت — اي الحجاز - مما يعد من جملة العهود البريطانية الخطيرة للعرب ، وخاصة انه صدر بعد تصريح بلفور ومعاهدة سايكس بيكو بمدة طويلة . وحينئذ خطوا خطوتهم الرسمية الى تأسيس الحزب . وقد كانت هذه الخطوة بعد دخول فيصل الشام واحتلال فرنسا لبنان والأقسام الساحلية وانكلترا فلسطين . وقد جعلوا منهج سوريا وحدة سوريا القومية واستقلالها وإدارتها على اساس اللامركزية ، وانتخبوا ميشيل لطف الله رئيساً له .

وكان من بوادر نشاطه الأولى الاحتجاج لدى بريطانيا على تجزئة البلاد السورية واعتبار ذلك مناقضاً للعهد المقطوع منها ، ثم ارسل وفداً من أعضائه إلى سوريا للعمل في سبيل أهدافه .

ولقد كانت فكرة الحزب ظاهرة جديدة في سير الحركة العربية وتشكيلاتها . لأن ذلك السير وهذه التشكيلات كانت وظلت قائمة على أساس أهداف الفكرة العربية واستقلال البلاد العربية العثمانية ووحدتها خاصة دون تفريق بين شام وعراق وحجاز . ومع أن الواقع عقب الحرب كان يملي اتجاهاً نحو العمل على استقلال سوريا واستقلال العراق واستقلال الحجاز ، إلا أن رجال الحركة العربية ظلوا متمسكين بفكرة الوحدة العربية ومهتمين لابرازها وتسجيلها في كل ما يقررون ويكتبون وينشرون .

ويبـــدو من عنوان الحزب ومنهاجه واشتراك فريق من اقطاب حزب اللامركزية فيه أنه كان لهذا الفريق أثر في تشكيل الحزب وانهم ظلوا في نشاطهم الجديد متأثرين بفكرة حزبهم القديم .

ولقد قيل ان مؤسسي الحزب كانوا يستهدفون إقامة جمهورية في سوريا يرأسها سوري ، وان منهم من اندفع في هذه الفكرة بسبب ما كان من موقف الحسين وفيصل منهم مما أشرنا اليـه قبل ، وان منهم من كان طامعاً برئاسة الدولة أيضاً . ولقد ظل طابع النقمة والجفاء ملحوظاً عـلى هؤلاء ضد الحسين واولاده طيلة العهد الفيصلي وبعده ، مما يمكن أن يؤيد صحة ما قيل . ونقول بالنسبة للحزب نفسه ان شكل الجمهورية لم يكن منصوصاً عليه في منهجه من جهة ، وان الذين جاؤوا إلى الشام من أعضائه اضطروا إلى تعديل بعض بنوده تعديلا يتفق مع الجو الذي كان سائداً على دمشق من جهة ثانية، رغماً عن أنهم مثلوا بشكلما دور المعارضة لفيصل وكان الذين هم من اعضاء الفتاة المؤسسين منهم عقدة غـير مفهومة في داخل الفتاة لأن الفتاة كانت متضامنة مع فيصل وسائرة في طريق توطيد حكمه في سوريا ، مما يمت الى ما كان قيل في صددهم . وإلى هذا وذاك فان الحزب لم يبرز ولم يتسع في العهد الفيصلي ، وما لبث بعض أركانه الذين قدموا من مصر ان عادوا اليها حيث استأنفوا نشاطهم فيما بعد انهيار العهد الفيصلي على ما سوف نذكره بعد .

النادي العربي

ومما تتحمل المناسبة الكلام عنه « النادي العربي » في دمشق . فقد انشىء في مبادىء العهد الفيصلي ، ولعل فكرته استوحيت من فكرة المنتدى الأدبي ؛ حيث مثل دور هـــذا المنتدى مع زيادة انطلاق وحرية متسقة مع طبيعة العهد القومية والتحررية والثورية . ولم يلبث أن غدا بيتاً قومياً يلتقي في ابهائه وغرفه الساسة وشباب الحركة ورواد دمشق القادمون من مختلف أنحاء البلاد العربية ؛ وكانت تعقد فيه الاجتماعـات العامة وتلقى فيه الخطب والمحاضرات وتقوم منه المظاهرات وتوجه منه التوجيهات وفقاً لما تمليه ظروف العهد وتطورات السياسة ؛ وبالجملة فقد

كان لوجوده ونشاطه أثر غير قليل في الحماس القومي الذي كانت تجيش بـه العاصمة العربيـــة . وفيه عقد المؤتمر السوري العام دورته الأولى أي اجتماعاته التي عقدها بمناسبة قدوم لجنة الاستفتاء الأميركية وقد كانت يد الفتاة فيه مائلة حتى يكاد يعد من روافدها .

وقد نسجت المدن العربيـــة الاخرى في انحاء بلاد الشام على منواله فنشأ في كثير منها أندية سميت باسمه وكانت مثله بيوتاً قومية ذات أثر غير يسير في النشاط والحماس والتوجيهات القومية .

-١٠-

رحلة فيصل الاولى الى اوروبا

ونعود الى الكلام عن العهد الفيصلي فنقول ان فيصل تلقى في اوائل تشرين الثاني ١٩١٨ أمراً من والده بالسفر الى اوروبا ليمثله في مؤتمر الصلح، فغادر سوريا حالا يرافقه بعض أعضاء الفتاة ، وانضم اليه آخرون منهم كانوا في باريس ، ومنهم من انتدب مندوباً رسمياً من قبل الحسين الى جانب فيصل في المؤتمر وهما محمد رستم حيدر وعوني عبد الهادي .

ولقد نظر الافرنسيون الى سفر فيصل ودخوله المؤتمر نظر التجهم ، وحاولوا إقامة العثرات في طريق قبوله في المؤتمر ممثلا عن الحجاز بل حاولوا أن يحولوا دون دخوله باريس وطردوا لورانس الذي كان معه، ومع انهم سهلوا له بعد ان طوفوه جبهات القتال دخول باريس والاجتماع برئيس الجمهورية إلا ان التجهم ظل قائماً . وقد دعاه الانكليز الى لنـــدن فسافر اليها حيث استقبل بحفاوة واجتمع بساستها ، وكان الانكليز اقنعوا الافرنسيين بعدم جدوى معارضتهم لتمثيل فيصل الحجاز ، ولم يلبث ان عاد الى باريس ، وان قبل في المؤتمر بهذه الصفة .

فيصل امام مؤتمر الصلح

ولقد اعتبر نفسه صاحب حق في الدفاع عن قضية العرب والتعبير عن آمالهم وأهدافهم، وطلب من المؤتمر الاصغاء اليه فاجيب الى طلبه، وتكلم بالعربية فذكر أماني العرب واهداف حركتهم وتضحياتهم ، وما نالوه من وعود وعهود وما قدم العرب في سبيل ذلك من مجهود ، وطالب بالاعتراف باستقلال البلاد العربية المحررة واعتبارها وحدة جغرافية لا يجوز تجزئتها ، وخص بالذكر سوريا فطالب باستقلالها ووحدتها على ان تكون متحدة في شؤونها الخارجية مع الحجاز، وأشار الى استعداد العرب للاستعانة بمستشارين اجانب أنى دعت اليهم الحاجة . وقد وصف كلامه بالبلاغة والحكمة وكان له تأثير قوي في أعضاء المؤتمر .

موقف فرنسة من فيصل ومطالبه

ولقد حاولت فرنسة توهين كلام فيصل بشأن سوريا خاصة — وقد كانت وظلت تقوم بدعاية اعتباره غريباً عن سوريا ولا حق له بالكلام باسم اهلها وتنعت حكومته بحكومة الشريف والشريفيين تخيف بذلك نصارى لبنان - فاستطاعت ان تحمل المؤتمر على الاستماع الى داود عمون الذي أرسلته سلطاتها من لبنان على رأس وفد لهذه الغاية حيث طالب بلبنان الكبير مستقلا باشراف فرنسا ومساعدتها ، والى شكري غانم كذلك بصفته رئيساً للجمعية السورية في باريس حيث طالب بوحدة سوريا واشراف فرنسا عليها . وقد استمع المؤتمر ايضاً الى هوارد بلس رئيس الجامعة الاميركية ببيروت حيث تكلم بقوة واقناع عن رغبة السوريين في الاستقلال والوحدة .

قرار الاستفتاء

وإزاء ذلك قرر المؤتمر بالحاح الرئيس ويلسون إيفاد لجنة دولية من الحلفاء للوقوف على رغائب سكان البلاد العربية المحررة، وفقاً لما كان قرره من مبدأ اعتبار

هذه البلاد مستقلة في حاجة الى الارشاد والمساعدة ووجوب احترام رغبات اهلها في مصيرهم . ومع ان المندوب الافرنسي وافق على القرار فان الدوائر الافرنسية لم ترتح الى ذلك لأنها خشيت من نتائج الاستفتاء في صدد مطامعها في لبنان وسوريا، فأخذت تقيم العثرات في سبيل إحباطه ، ثم تلكأت هي واقنعت انكلترة بالتلكؤ في ايفاد بعثتيهما فأمر الرئيس ويلسون بعثته التي عرفت بلجنة « كينغ - كراين » بالسفر والقيام بالمهمة وحدها . وهكذا بدت مظاهر التآمر الافرنسي الانكليزي على بلاد العرب الذي وضعت اسسه في اثناء الحرب على ما ذكرناه سابقاً .

ومن العجيب ان الانكليز فعلوا هـذا بينما ساعدوا فيصل في دخول المؤتمر والتكلم باسم العرب وسوريا ، وبينما حاولوا جهدهم بعد ذلك في حمل السوريين على رفض مساعدة فرنسا وإرشادها ، وهو موقفهم النفاقي المعتاد والمساوم الذي يطمع ويؤيس وتقيم العثرات بقصد النجاح في مايريده لنفسه من المغانم ويبيته من مآرب.

ولقد كانت انكلتره تريد ان تخرج العراق من مطالب العرب وتبسط عليه سيطرتها التامة كما كانت تريد ان تخرج فلسطين منها ايضاً وتبسط سيطرتها التامة وتساعد اليهود على تحقيق امانيهم فيها وفقاً لتصريح بلفور الذي اصدروه لهم ، وضمانة لمساعدتهم لهم في غايتهم هـذه ؛ حتى لقد ضغطوا على فيصل في الأمرين في لندن ثم في باريس ولوحوا له بامكان تحقيق امله في سوريا إذا استجاب الى رغبتهم، وساعدوه على دخول المؤتمر والادلاء ببيانه ومطالبته بسوريا موحدة مستقلة عربونا على ذلك ؛ وقد كان اتفاق « سايكس - بيكو » يجعل ادارة فلسطين دولية من جهة ويجعل الموصل في منطقة نفوذ فرنسا من جهة اخرى، وكانت ترغب من فرنسا ان توافقها على تعديل الاتفاق بحيث تصبح فلسطين تحت سيطرتها والموصل في منطقة نفوذها هي ؛ وكانت المفاوضات دائرة بين الفريقين الغادرين على ذلك إبّان انعقاد المؤتمر وإدلاء فيصل ببيانه ، وكانت فرنسا في طريق الاستجابة إلى رغبة انكلتره هذه غير ان النتيجة الحاسمة لم يكن قد بُت فيها . ففي هـذا ما يفسر موقف الانكليز كما هو واضح . يضاف الى هذا خشيتهم هم الآخرون من نتائج الاستفتاء في العراق وفلسطين وعدم سير العرب في الطريق الذي يرغبونه . فسايروا فرنسا في عدم ارسال بعثتهم حتى لا تكون شاهداً عليهم من اهلهم . والمرجح ان اليهود

قد خشوا كذلك نتائج الاستفتاء في فلسطين فدفعتهم خشيتهم الى عرقلته ولو بعدم إوسال بعثات الحلفاء الآخرين .

وعاد فيصل من أووروبا في وبيع عام ١٩١٩ يدعو إلى التفاؤل ويحض على توحيد الرأي في البلاد السورية أمام لجنة الاستفتاء ، وتقرر عقد مؤتمر سوري عام يضم ممثلين عن جميع انحاء سورية الطبيعية ، واخذت العدة تعد لهذا المؤتمر، والدعاية تبث في سبيل توحيد الرأي ، والحيوية تبدو قوية نشيطة .

لجنة الاستفتاء في فلسطين

وجاءت اللجنة الأميركية في اواسط عام ١٩١٩ فزارت في أول الأمر فلسطين التي كانت أوساطها الوطنية قد استعدت للاستفتاء إستعداداً حسناً ، وبدا عليها من النشاط والحيوية والتنظيم ما أثار إعجاب اللجنة . وقد كان لأعضاء الفتاة الذين كانوا في فلسطين وكانوا على اتصال بالهيئة المركزية في دمشق في صدد الحركة والتنظيم والتوجيه جهد كبير في ذلك ، ولقد كان الصوت العربي مجمعاً تقريباً على الرغبة في الاستقلال والوحدة السورية ضمن وحدة عربية عامة مستقلة ورفض السياسة الصهيونية ووعد بلفور وفقاً للميثاق الذي أقره المؤتمر الفلسطيني الأول ، وكان العرب حينذاك يمثلون ٩٣ ٪ من السكان . وقد كان مما وجهته اللجنة من السؤالات موضوع اختيار الدولة المرشدة المعاونة وفقاً لما قرره مؤتمر الصلح وغدا من ميثاق عصبة الامم ، فكان جواب الاكثرية الساحقة من المسلمين الذين كانوا يمثلون ٨٥٪ من السكان مجمعاً على احالة الجواب على هذا السؤال الى المؤتمر السوري العام المزمع عقده في دمشق والذي سوف يضم ممثلين عن فلسطين . وكان جواب النصارى متنوعاً وفقاً للدعايات والميول المختلفة في صدد الترجيح بين فرنسة وأميركا وانكلترا والاحالة الى المؤتمر السوري . ولقد لوحظ ان العمال الافرنسيين نشطوا في أمر توجيهم في الاوساط الاسلامية فضلا عن النصرانية والكاثوليكية بنوع خاص، وقد استجاب بعض الافراد الانتهازيين الى المسعى الافرنسي وحاولوا بذل النشاط في الأوساط الاسلامية ولكنهم اخفقوا اخفاقاً تاماً وكانوا موضع الغز

والطعن واعتقد الناس انهم كانوا مأجورين في محاولتهم . والمسعى الأفرنسي يدل على التشاد بين الافرنسيين والانكليزوعلى عدم الوصول في المفاوضات والمساومات الى نتيجة مرضية بعد .

والمؤتمر الفلسطيني الاول المذكور كان اول مؤتمر عقد في البلاد العربية المحررة عقب انتهاء الحرب حيث عقد في اوائل عام ١٩١٩ ، وكان يمثل المسلمين والنصارى معاً . ولقد حاول الانكليز بأساليب متنوعة ترغيبية وترهيبية ان يصرفوا المؤتمر عن قرار الوحدة السورية وان يقنعوه بطلب استقلال فلسطين بإشراف بريطانية ، واقنعوا رئيس المؤتمر وبعض اعضائه ، واستدعوا الجنرال حداد الذي كان مديراً الأمن العام في دمشق خصيصاً لهذا الغرض ، فاجتمـــع بعدد من اعضاء المؤتمر البارزين محاولاً اقناعهم بعدم جدوى قرارهم ، ولكن المسعي مني بالاخفاق ، لان الميثاق كان قد تقرر قبل اشتداد المساعي ، ورفضت الاكثرية الساحقة البحث فيه ثانية . وقد قرر المؤتمر في ما قرر اطلاق اسم سورية الجنوبية عـــلى فلسطين ، وانتداب وفد لزيارة دمشق والاتصال بهيئاتها في صدد الميثاق المقرر والخطر الذي يهدد فلسطين بالتهويد بما لمس الاعضاء بوادره وتنبأ بعضهم بمصير فلسطين القاتم بسببه ولكن السلطات الانكليزية حالت دون سفره واذ ذاك ...

لجنة الاستفتاء في سوريا ولبنان والمؤتمر السوري العام

ثم انقلبت اللجنة الى دمشق وانعقد مع مجيئها المؤتمر السوري العام ، وقد ضم اكثر من ثمانين مندوباً من مختلف انحاء سورية الداخلية والساحلية الجنوبية كان بينهم نخبة صالحة من متنوري البلاد ورجال الحركة العربية وشبابها . وقد انتخب ممثلو منطقة سوريا الداخليـــة انتخاباً نيابياً ووفقاً لقانون الانتخاب وباشراف الحكومة من قبل المندوبين الثانويين في انتخابات المجلس النيابي العثماني الاخير ، ولما لم يكن هـــذا ممكناً بالنسبة للبنان والسواحل التي تسيطر عليها السلطات الافرنسية وتهدف فرنسا الى مناوأة الحركة العربية فيها ولا بالنسبة لفلسطين التي تسيطر عليها السلطات الانكليزية وتهدف انكلترا الى اقتطاعها من جسم سوريا

وعزلها وتحقيق أمنية اليهود المتسقة مع مآربها فيها فقد تولى انتخاب مندوبي هذه المناطق وتوكيلهم الجمعيات والأندية والشخصيات البارزة حسب ما كان في الامكان وهذه اسماء اعضاء المؤتمر حسب مناطقهم . أخذناها من لوحة الصور الكبيرة التي جمعوا فيها بمناسبة اعلان الاستقلال وملكية فيصل ومن الذاكرة حيث ان اللوحة لم تحتو صور الجميع . ومع هذا وذاك فالمرجح ان هناك اسماء اخرى لم توضع صور أصحابها وغابت عن الذاكرة أسماؤهم :

المنطقة الداخلية بما فيها شرق الاردن حيث كان احد مقاطعاتها وبما فيها الأقضية الأربعة التي ألحقت بلبنان حينما نودي به كبيراً : عبد القادر الخطيب دمشق . محمد فوزي العظم دمشق . فوزي البكري دمشق . فخري البارودي دمشق . احمد القضماني دمشق . محمد المجتهد دمشق . مسلم الحسني دمشق . الياس عويشق دمشق . عبد الرحمن اليوسف دمشق . عزة الشاوي دمشق . يوسف لينادو دمشق . الشيخ تاج الدين الحسني دمشق . فاتح المرعشلي اعزاز . جلال القدسي اعزاز . تيودور أنطاكي حلب . سعد الله الجابري حلب . حكمة النيال حلب يوسف الكيالي حلب . نوري الجسر حلب . عيسى المدانات الكرك . خليل العتهوني معان . سعيد ابو ناجي السلط . عبد المهدي محمود الطفيلة . سليمان السوري عجلون . سعيد الصليبي السلط . محمود ابو رومية حوران . ابراهيم هنانو حارم . خالد البرازي حماه . عبد الحميد البارودي حماه . عبد القادر الكيلاني حماه . عبد الرحمن ارشيدات عجلون . شريف الدرويش الباب . محمود نديم منبج . حكمة الحراكي المعره . حسن رمضان الزبداني . فايز الشهابي حاصبيا . سعيد حيدر بعلبك محمد حيدر بعلبك . تامر حماده الهرمل . ناصر المفلح حوران . زكي يحيي إدلب . فؤاد عبد الكريم إدلب . احمد العياشي إدلب . محمود الفاعور القنيطرة . خليل ابو الريش النبك . هاشم الأتاسي حمص . وصفي الأتاسي حمص . مظهر رسلان حمص .

لبنان والساحل الغربي

رشيد رضا طرابلس الشام . توفيق البيسار طرابلس الشام . عثمان سلطان طرابلس الشام . الشيخ عبد العظيم طرابلس الشام . إبراهيم الخطيب لبنان . رياض الصلح صيدا . عفيف الصلح صور . عبد الفتاح الشريف عكار . سليم علي

سلام بيروت . جميل بيهم بيروت . أمين بيهم بيروت . جورج حرفوش بيروت. ناجي علي اديب جبله . محمد خير اللاذقية . محمد الشريقي اللاذقية . منح هارون اللاذقية . صبحي الطويل اللاذقية . توفيق مفرج الكوره . دعاس الجرجس حصن الأكراد . رشيد نفاع المتن . مراد غلمية مرجعيون . سعيد طليع لبنان .

فلسطين

سعيد الحسيني القدس. راغب النشاشيبي القدس. ابراهيم القاسم عبدالهادي نابلس. عزة دروزه نابلس عادل زعيتر نابلس امين التميمي نابلس الشيخ طاهر الطبري طبريا. يوسف العاقل طبريا. عبد الرحمن النحوي صفد. صلاح الدين قدوره صفد. الدكتور احمد قدري عن الخليل. رفيق التميمي عن الخليل . سليم عبد الرحمن طولكرم . حسين الزعبي الناصرة . عبد الفتاح السعدي عكا . الشيخ ابراهيم العكى عكا . الحاج امين الحسيني القدس . عارف العارف القدس . يوسف العيسى يافا . معين الماضي حيفا . رشيد الحاج ابراهيم حيفا . الشيخ سعيد مراد غزه . رشدي الشوا غزة

وعقد المؤتمر اجتماعاته في بهو النادي العربي وانتخب لرآسته محمد فوزي العظم ولسكرتيريته عزة دروزه . وقد قرر رغبة سوريا بحدودها الطبيعية في الاستقلال التام والوحدة ضمن وحدة عربية مستقلة ، ورفض السياسة الصهيونية والهجرة اليهودية رفضاً باتاً ، والاحتجاج على المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الامم القاضية بادخال سوريا في عداد الامم المحتاجة الى الانتداب لأن شعبها لا يقل رقياً عن غيره وخاصة عن البلغار والصرب واليونان والرومان المنسلخة بلادهم عن الدولة العثمانية ، والاستعانة بأميركا بسبب انها لا مطامع استعمارية لها استعانة فنية واقتصادية كلما دعت الى ذلك حاجتها على ان لا يكون في ذلك اي معنى لوصاية او حماية او تدخل او مساس باستقلالها السياسي التام ووحدتها في حال اصرار المؤتمر على تطبيق المادة (٢٢) المذكورة ، والاستعانة بريطانيا على هذه الاسس اذا حالت ظروف اميركا دون الاجابة الى هذه الرغبة ، ورفض الاستعانة بفرنسا رفضاً باتاً وانكار ماتدعيه من حقوق ومصالح تقليدية في سوريا نظراً لما تضمره من مطامع استعمارية تتناقض مع آمال العرب القومية ، وقرر فيما قرر رغبته في ان يكون شكل الحكم ملكياً نيابياً تحت ملكية فيصل وعلى اساس اللامركزية الواسعة ، وطلب ما طلبه لسوريا للعراق وعدم ايجاد اي حاجز اقتصادي بينها ،



ألمؤتمر السوري



الامير فيصل يخطب في النادي العربي في دمشق

والاحتجاج على كل معاهدة سرية سابقة تقضي بتجزئة سوريا او كل وعد يرمي الى تمكين الصهيونيين من فلسطين وطالب بإلغائها بناء على القاعدة الاساسية التي وضعها ويلسون والقاضية بإلغاء المعاهدات السرية ...

ثم حمل وفد من المؤتمر قراره وسلمه إلى اللجنة وتحدث معها شفوياً عن المؤتمر وتمثيله وآماله الكبيرة في اميركا الحرة المجردة من المطامع الاستعمارية . ولقد اتصلت اللجنة بمختلف الشخصيات والهيئات في سوريا الداخلية فكانت النتيجة التي وصلت اليها متطابقة مع قرار المؤتمر في الجملة . ثم زارت لبنان وسواحل سوريا ، وبالرغم عن ما كان من تجهم السلطات الافرنسية وتوتر اعصابها فقد كانت آراء اكثرية السكان في هذه المناطق التي تتمثل في المسلمين السنيين والشيعيين والدروز والنصارى الارثوذكس والبروتستانت متطابقة كذلك مع ما سمعته اللجنة في الداخل والجنوب . وكل ما كان من امر هو موقف الموارنة والكاثوليك وبعض الفئات النصرانية الذي كان مخالفاً حيث ايدوا السياسة الافرنسية والاشراف الافرنسي واعلنوا رغبتهم في كيان لبناني خاص وفقاً للتوجيه الافرنسي الذي بدأ في المؤتمر على لسان الوفد الذي رأسه داود عمون . ومن الطريف ان نسجل ان فرنسا لم تتورع من مناقضة الواقع المسجّل في العرائض وتقرير اللجنة فتعلن عقب الاستفتاء ان اكثرية السكان في سوريا طلبت فرنسا ...

وعلى كل حال فقد ظهر للجنة كما عرف من تقريرها ان اكثرية سكان سوريا الطبيعية داخلا وجنوباً وساحلا متطابقة في مطلب الاستقلال والوحدة والنفرة من الحماية والمداخلة الأجنبية والاستعمارية وخاصة الافرنسية . وقد جاءت هذه النتيجة برهانا على قوة قابلية الاستجابة في العرب للدعوة القومية والفكرة القومية والتنظيم القومي كما انها كانت ذات تأثير عظيم على اللجنة الأميركية والاوساط الاستعمارية معاً .

ومن تحصيل الحاصل ان نقول ان حركة الاستفتاء هذه كانت وسيلة قوية للدعاية الى الفكرة العربية وأهدافها في اوسع ساحة ممكنة وتوجيه الافكار العربية الى هذه الاهداف اولاً والى المؤتمر السوري وما احتواه قراره من الأهداف التي تركزت في الاستقلال للاماني القومية ومنذرة بما تبيته فرنسا لسوريا من نيات استعمارية . وعلى كل حال فقد كانت محاولة الانكليز في النقطتين مظهراً من مظاهر

التشاد بينهم وبين الافرنسيين حول ما يبيته كل منها للعرب ووسيلة من وسائل المساومة الدائرة بينها .

ولقد انتقد البعض ما كان في قرار المؤتمر من التشدد في إظهار العداء نحو فرنسا وحسبوا ذلك من اسباب شدة التجهم الافرنسي نحو الحكومة الفيصلية، وما كان من النص على طلب الاستعانة من اميركا وان لم يكن فمن بريطانيا ، واعتبر الناقدون ذلك اقراراً لمبدأ الانتداب الذي لم يكن الا صورة من صور الاستعمار، وكذلك انتقدوا الاتجاه الذي بدا في إقامة دولة مستقلة خاصة بسوريا واعتبروا هذا نقضاً للاهداف التي استهدفتها الفكرة العربية والثورة العربية وهي انشاء مملكة عربية كبرى مستقلة موحدة تشمل البلاد العربية المحررة من تركيا بنتيجة الحرب، وذلك ما اشتملته حدود الحسين في مذكرته الخطيرة الأولى .

أما النقطة الأولى فمع ان الدعاية الانكليزية كانت ذات أثر فيها فان ما بدا من السلطات الافرنسية في لبنان والحكومة الافرنسية في باريس من مواقف عدائية ضد الحركة العربية وتوهين اهدافها،وما اقيم من عثرات في وجه فيصل، وما كان يبث من دعايات وينفق من اموال في سبيل الدس والتشويش على العهد العربي الفيصلي ، وما بدا مكشوفاً من مطامع فرنسا في سوريا وبسط سلطانها عليها كان كذلك والوحدة السورية الكبرى ضمن الوحدة العربية الجامعة وفي مناوأة كل مطمع إستعماري وتزييف كل دعوى او مزاعم أجنبية في اي جزء من اجزاء البلاد .

- ١٢ -

أثر الانكليز في الاستفتاء

هذا،ولقد كان ملموساً ان الانكليز حاولوا توجيه الرأي العربي في سوريا في وجهة ترجيح إنكلترا في طلب المساعدة من جهة والتشدد في رفض فرنسا من جهة اخرى . ولقد كان من شأن محاولتهم في النقطة الأولى ان قام تشاد او خلاف بين الفتاة وفيصل، حيث كان فيصل وبعض الأعضاء يودون السير في الاتجاه الذي يرضي الانكليز اقتناعاً بأن ذلك في مصلحة المطالب العربية ، ولكن ما كان يبدو من الانكليز من مواقف عجيبة متناقضة وأساليب ملتوية وخاصة بالنسبة للعراق

وفلسطين وتشكيلات الجيش العربي وما ظهر من تآمر مع فرنسا على الغـــدر والنكث في العرب ارجد في نفوس رجال الحركة العربية رد فعل ضد توجيهاتهم، ثم انتهى الأمر الى الحل الوسط الذي بـــدا في قرار المؤتمر حيث نص على طلب المساعدة من اميركا فان لم يكن فمن انكلترا ، وجرى التيار في هذا المجرى . اما التشدد في رفض فرنسا فكان موافقاً لما في نفوس رجال الحركة العربية لما كان يبدو من السلطات الافرنسية في لبـــنان والسواحل ومن الحكومة الافرنسية المركزيةمن مواقف وتصرفات مضادة ذات أثر فعال في تأريث هذا العداء ، فضلا عن ما كان من اعتقاد قوي بأن فرنسا لن تبدل من سياستها ولن تخفف من غلوائها على أي حال . ومع ان الانكليز لا يقلون استحقاقاً للوم العرب على ما كان من تآمرهم مع فرنسا واقدامهم على الغدر بعهودهم لهم قبل ان يجف مدادها في ما كان من اتفاقهم معها على تقسيم بلاد الشام والعراق الى مناطق استعمار ونفوذ وتجزئة بلاد الشام إلى عدة أجزاء ، وان هـــذا يوجب على رجال الحركة العربية ان لا ينساقوا مع وحي الانكليز وتوجيههم أيضاً فمن الانصاف ان يذكر إلى جانب هذا ما كان رجال الحركة امامه من مختلف الدسائس والتيارات التي جعلتهم حيارى ومضطرين الى الارتكاز على طرف ما ، وكان الانكليز هم هذا الطرف الميسور لهم لما كانوا يتظاهرون به من الصداقة للعرب ونعومة الملمس معهم ، ولا سيما انهم كانوا في موقف تشاد مع فرنسا وكان هـــذا مما يوحي او يؤمل بانفراط التواثق بينهم وبينها وبالتالي باحتمال التراجع وحسن المصافاة وتوطيد المطالب العربية . على أن الانصاف يوجب كذلك ان يذكر ان رجال الحركة العربية لم يكونوا منساقين بوحيهم وتوجيههم كل الانسياق .

واما النقطة الثانية فمن الحق ان يقال انها كانت نتيجة للجو الذي اوجده نص ميثاق جمعية الامم من جهة والذي احس به فيصل في المؤتمر من جهة اخرى، بحيث صارت هناك عقيدة انه من الكياسة اظهار الاستعداد للاستعانة باحدى الـــدول الكبرى في النشأة الجديدة ، بل رانه لا مناص من ذلك . على ان واضعي القرار قد احتاطوا كثيراً بحيث يكاد يصبح الانتقاد غير وارد من الوجهة الواقعية .

واما النقطة الثالثة فمع التسليم بصحة الانتقاد فان ما كان حول سوريا من جذب

ودفع وما كان من ايحاءات الانكليز كان سبباً في انتحاء هذا النحو . ومع ذلك فان واضعي القرار قد سدوا الثغرة بعض الشيء بما كان من طلبهم للعراق ماطلبوه لسوريا ومن إعلان الرغبة في الاتحاد معه وعدم إقامة اي حاجز بينه وبين سوريا ومن إعلان الرغبة كذلك في الاستقلال ضمن وحدة عربية عامة. وقد اكدوا سدّ الثغرة مرة اخرى حينما قرروا إعلان الاستقلال والملكية حيث اكدوا امنيتهم في استقلال العراق ورغبتهم في الاتحاد معه .

لجنة الدستور في المؤتمر

ومما يحسن ذكره في هذه المناسبة ان المؤتمر او بالأحرى رجال الحركة العربية والقائمين بالعهد الذين كانوا النافذين فيه رأوا في المؤتمر فرصة لوضع دستور الدولة السورية الموحدة المستقلة التي اعلنوا رغبتهم في قيامها ، فألف المؤتمر لجنة تمثل المناطق السورية الثلاث لذلك برآسة هاشم الاتاسي وسكرتيرية كاتب السطور ، وقد سلخت اللجنة بضعة اشهر، ودرست دساتير ومراجع متنوعة وعديدة ، واتمت المشروع وقدمته الى المؤتمر في دورته الثالثة التي اعلن فيها الاستقلال والملكية ، وغدا فيها المؤتمر بعد هذا الاعلان بمثابة مجلس تأسيسي ونيابي معاً .

-١٣-

تصفية النشاد بين انكلترا وفرنسا

ولقد اعقب الاستفتاء حوادث متنوعة ذات خطورة في حياة سوريا ومستقبلها ففرنسا التي ما فتئت ترى اصبع الانكليز في حركات الشام والعرب بقصد ازعاجها ومساومتها وارغامها على التسليم بالتعديلات التي تريدها ، والتي اعتقدت ان ما كان في سياق الاستفتاء من إثارة للعداء الشديد في نفوس العرب ضدها ، وما اعقب الاستفتاء من اشتداد حركة الشام ودعايتها في صدد تحقيق الأهداف التي اعلنها

المؤتمر انما هو بتأثير وحيها وتوجيهها رأت انه لا مناص لها من التسليم حتى تضمن لنفسها الحرية في العمل في سبيل تحقيق مطامعها في سوريا ولبنان ، وتتفادى نتائج الاستفتاء فيها واستمرار الانكليز في استغلاله . فلم تكد لجنة الاستفتاء تعود الى باريس في اوائل شهر ايلول من عام ١٩١٩ حتى اتصلت باريس بلندن ، واتفقتا على عقد مؤتمر في باريس للتصفية .

حادث استبدال الحاميات في الاقضية الاربعة

وكان الغرض الظاهر للمؤتمر الاتفاق على استبدال الحاميات الانكليزيـــة في الاقضية الاربعة التي الحقت بلبنان بعد انهيار العهد الفيصلي وحينما نودي به كبيراً وهي بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا بحاميات افرنسية، واستعادة القوة الافرنسية المرابطة رمزياً في الشام الى بيروت. وقد كانت هذه الأقضية في عهد الدولة العثمانية تابعة لولاية الشام وظلت تابعة للحكومة العربية الفيصلية، الا ان حامياتها انكليزية مما يدل على وجود خلاف عليها بين انكلترة وفرنسا من ناحية التحديد. ولقد كانت فرنسا تريد ضمها إلى لبنان ليصبح لبـنان الكبير ، وتدفع اللبانيين الى المطالبة بها بحجة انها كانت ضمن حدود لبنان قبل عام ١٨٦٠ ، وحملتهم على التقدم بهذا المطلب إلى مؤتمر الصلح على لسان وفد داود عمون ، وعلى اقراره كمطلب اساسي من قبل مجلس إدارة لبـنان في اوائل مايس ١٩١٩ والتقدم به كذلك إلى لجنة الاستفتاء الأميركية .

رحلة فيصل الثانية الى اوروبا

وقد اراد لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ان يقوي مركزه في المفاوضة والمساومة فدعا فيصلا إلى باريس لحضور المؤتمر على ان يصل في ١٦ أيلول ١٩١٩، وسارع فيصل الى الابحـار . ولكن كلمنصو رئيس الوزارة الافرنسية احتج على دعوته وحضوره لأن فرنسا كانت منذ البـــدء تناوىء حقه في الكلام عن سوريا

وترى في عهد الشام الذي كان رأسه والجياش بالحركة العربية عثرة في سبيل تنفيذ برنامجها ، والح بحصر المفاوضة بين فرنسا وانكلتره فقط ، وعمد في ذات الوقت الى تفويت الفرصة فصدر الامر بتعويق الباخرة التي تقل فيصلاً عن الوصول الى الساحل الافرنسي فلم تصل إلا في ١٨ أيلول حيث كان المؤتمر قد عقد وانتهى وكان لويد جورج قد عاد إلى لندن .

ولقد كان من نتائج المؤتمر الرسمية إقرار الاستبدال المطلوب الذي فيه استجابة لرغبة فرنسا ، وكان مقدمة لسلخ الأقضية الأربعة عن سوريا وضمها إلى لبنان . وكان من نتائجه السرية التي ظهرت آثارها بعد قليل جلاء الحاميات الانكليزية عن سوريا الداخلية باستثناء شرق الاردن لتزول بذلك عقبة من طريق فرنسا وحرية تصرفها إزاء سوريا الداخلية أيضاً . وكان هذا وذاك مقابل موافقة فرنسا على التعديلات الانكليزية بتخليها عن الموصل لتنضم الى منطقة النفوذ الانكليزي، وبموافقتها على جعل فلسطين تحت السيطرة الانكليزية بدلا من الادارة الدولية ، وباقرارها سلخ شرق الاردن عن سوريا وجعلها تحت السيطرة الانكليزية كذلك حينما تنتهي من الاستعداد لتنفيذ برنامجها الباغي واحتلال سوريا الداخلية .

وقد عينت الحكومة الافرنسية في هـذه الاثناء الجنرال غورو قائداً عاماً ومزوداً بالصلاحيات الواسعة وممدوداً بالامدادات المتنوعة ، وكان ذلك انذاراً عملياً بالخطوة الباغية التي خطتها الى ذلك الاحتلال وهدم العهد الفيصلي حينما أتمت استعدادها لذلك بعد بضعة اشهر .

موقف انكلترا وفرنسا من فيصل بعد التصفية

ولما نزل فيصل الى الساحل الافرنسي قابله مندوب من قبل لويد جورج يخبره باضطراره الى انهاء مهمته والعودة الى لندن بسبب تأخر وصوله ، وبأنه ينتظره في لندن . ولم يرَ من الحكومة الافرنسية إلا جفاءً وتجهماً فتابع طريقه الى لندن . وهنا قيل له بصراحة انه يحسن به ان يتفاهم مع الحكومة الافرنسية، وان بريطانيا

لا تستطيع أن تنصحه بغير ذلك . ولما حاول الاحتجاج والتذكير بالعهود والجهود والدماء والآمال سمع من اللورد كورزون وزير الخارجية ما حطم أمله وكشف له حقيقة الموقف بنفض بريطانيا يدها من القضية السورية واطلاق يد فرنسا فيها .

-١٤-

أثر الصفقة في الشام

ومع أنه اذيع ان استبدال الحاميات هو تدبير عسكري وموقت وليس من شأنه التأثير في قرار مؤتمر الصلح النهائي ، فان القائمين بعهد الشام أدركوا مدى الغدر الانكليزي اللئيم ، وان ما كان من الانكليز من مواقف المجاملة والتحريض انما كان وسيلة مساومة لبيع العرب ، فكان له اثر شديد اهاج الأفكار والأعصاب ، وقامت في دمشق المظاهرات الصاخبة تطالب بالدفاع وعدم تمكين الافرنسيين من احتلال الأقضية السورية .

المؤتمر والدفاع

وقد قرر الامير زيد الذي كان ينوب عن أخيه بالاتفاق مع الحكومة دعوة المؤتمر السوري للنظر في الموقف . وانعقد المؤتمر بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني من عام ١٩١٩ في بهو النادي العربي أيضاً كالمرة السابقة وسط المظاهرات الصاخبة والافكار الهائجة والاعصاب المتوترة ، وقد ترأس اجتماعات هذه الدورة عبدالرحمن اليوسف نائب الرئيس لأن الرئيس محمد فوزي العظم كان قد توفي . واستمع المؤتمر في جلسته الاولى الى بيان فاتر القته الحكومة كان اقرب الى التسكين والتهوين منه الى الحماسة والعزيمة . مع مااحتواه من تقرير ان هذه الحركة ليست إلا تطبيقاً لمعاهدة سايكس بيكو المجحفة . وقد قرر المؤتمر في جلسته الثانية وجوب الدفاع عن وحدة البلاد واستقلالها وكرامتها ، واقترح المسارعة الى اعلان الاستقلال واقامة حكومة مسئولة يثق بها لاتخاذ وسائل الدفاع عن الوطن المهدد ، واذاع على الامة بيانا يدعوها فيه الى تلبية داعي الدفاع بالمال والنفس ، ورفع قراره الى الامير

زيد وكيل الرئيس وسكرتير المؤتمر . ولا أزال اذكر مثلا ساذجاً قوياً أورده عبد الرحمن اليوسف في سياق تقديم القرار وتبريره حيث قال للأمير : « ان المؤتمر قد قرر الدفاع وانه محق في ذلك . فالدجاجة يقبض عليها الذبّاح بيد وتكون السكين الحادة الطويلة في يده الاخرى تحز عنقها ومع ذلك فانها تصرخ وتضرب بقدميها وجناحيها دفاعاً عن حياتها . . »

جلاء الحاميات الانكليزية

وفي هـذه الاثناء كانت الحاميات الانكليزية تجلو عن سوريا نتيجة للاتفاق السري الذي تم في مؤتمر باريس وتزيد في جلائها الاعصاب توتراً ، وتثير به مخاوف الناس الذين رأوا في هذا الجلاء ان الانكليز قد نفضوا يدهم من القضية وجعلوا سوريا امام الخطر الافرنسي وجهاً لوجه . وتم الجلاء في آخر شهر تشرين الثاني . ومن طريف ما وقع أو بالأحرى مما يجب ان يعد من باب القحة المؤلمة اللئيمة أن الطائرات الانكليزية أخذت تنثر وهي تجلو مع الجيش على أهل دمشق بينما هم في أعصابهم المتوترة ومظاهراتهم الهائجة ضد غدر الانكليز وبغي الافرنسيين نشرات تحية ووداع . وهكذا يصدق المثل الذي يقول « يقتل القتيل ويمشي في جنازته » !

خطف ياسين الهاشمي وشخصيته

وقد اقدم الانكليز على عمل آخر ودعوا به سوريا وداعاً قبيحاً ، وكان له اثر في اشتداد التوتر وازدياد المخاوف وهو اعتقالهم ياسين الهاشمي رئيس الجيش والذي كان يعتبر الرأس المدبر الذي يخشى جانبه في الشام في هذه الظروف التي تجيش فيها العاطفة والحماس باسلوب احتيالي ، حيث دعوه الى تناول الشاي في المعسكر قبل الغروب ومن هناك ارسلوه مخفوراً الى الرملة في فلسطين واعتقلوه فيها .

ولقد كان لياسين شخصية قوية في هذا العهد جعلته محترماً مرهوبا . وكان من أركان الفتاة وعمدها ، وكثيراً ما كانت كلمته هي الفاصلة ورأيه هو الحاسم في ما كان يجري من مناقشات ويرسم من خطط . وأحسن وصف يمكن ان يوصف به انه



من اليمين مولود مخلص . جميل المدفعي . ياسين الهاشمي . نوري السعيد . توفيق السويدي

كان يفرض نفسه فرضا ، فيفتقد في الغياب، ويسبغ على الجلسة التي يشهدها خطورة وثقة ، وينـاط به الفصل في المهات ، ويُرى في مايبديه من رأي ويرسمه من خطط صواب وبعد نظر وقوة نفوذ. وكان حاسماً في رأيه جديا في مظهره، قليل الكلام والمزاح بعيد الغور ، يوحي لمخاطبه وجود خطورة وراء مظهره الصامت الجـــاد ورأيه الحاسم وغوره البعيد . وكان يقع بينه وبين الحاكم العام رضا الركابي الذي هو الرئيس الفعلي للادارة تشاد وتجاذب في اوقات كثيرة ؛ وكان هذا من أهم ما كان يشغل بال القائمين بالامر وأعضاء الفئاة البارزين خاصة، وكان اتجاههم اليه وثقتهم به أكثر حتى كانوا في الاعم الاغلب في صفه ، ويعتقدون ان الحاكم في موقف الباغي الكائد ، وهذا مما زاد من مكانة ياسين وقوة شخصيته ايضا . وقد كان من المؤيـــدين المحرضين على منع الاحتلال الأفرنسي للاقضية الاربعة بعكس ما كان يبدو موقف الثاني الذي كان يجنح إلى التسكين والتهوين ، وكان هذا بارزاً في البيان الذي القاه في المؤتمر كما نبهنا عليه من قبل حتى لقد فضل الاستقالة من منصبه بعد انتهاء الازمة على السير في سياسة تخالف هـذه السياسة . ولا يبعد ان يكون مرد هذا إلى خشية الفشل والرغبة في تفادي القتال على غير استعداد . ولقد كان ياسين قطب رحى العراقيين القوميين ، وما كانوا بسبيله من محـاولات في صدد حركات العراق وتموينها وتمويلها وإنجاحها ، وهذه مسألة كانت تهم الانكليز وتشغل بالهم . وهكذا كان محسوب الحساب من الافرنسيين والانكليز معاً فـلا غرابة في إقدام الانكليز على خطفه قبل مغادرتهم الشام حتى لا يبقى وراءهم ما يخيفهم ، وفي أن يكون هذا نتيجة تفاهم بينهم وبين الافرنسيين بعد أن تمت تصفية الموقف بينهم .

ولقد قيل ان للركابي اصبعاً في اعتقاله ، وكان التشاد والتجاذب بين الرجلين مما جعل الناس لا يستبعدون ذلك . ولكن هـــذا القول بقي في دائرة التخمين والتخرص ولم يؤيد بشيء وثيق . على ان الانكليز والافرنسيين لم يكونوا في حاجـــة الى من يحرضهم على الرجل ، حيث كانوا أعرف الناس بقوة شخصيته وخطورته وخطره .

ولقد كان خطف الهـــاشمي ذا أثر شديد على الناس أدى إلى ازدياد هياجهم

وصخبهم وتوتر أعصابهم، ورأوا فيه حلقة من حلقات المؤامرة الانكليزية الافرنسية الباغية . وكان نذيراً جديداً من الانكليز في صدد منع اي حركة من حركات المقاومة لتنفيذ الاتفاق، كما ان حكومة لندن حملت فيصلاً وكان ما يزال هناك على الابراق لأخيه موصياً بالهدوء والتوقي من الصدام الدموي . فكان هذا وذاك مثبطاً للعزائم وسبباً في عدم وقوع حركة دفاعية رسمية . وكل ما كان من امر مصادمة بين القوى الافرنسية التي قدمت الى بعلبك وبين بعض العصابات في هذه الناحية هيأتها الهيأة المركزية للفتاة بواسطة بعض أعضائها من بني حيدر وذهبت فيها بعض الضحايا من الفريقين ، وكانت كاحتجاج رمزي دموي من ضعيف تجاه عدو قوي العدد والسلاح .

على ان ما كان من هياج الشام وتوتر أعصابها ارحى بمحاولة تسكينية فجرت مفاوضات اشتركت فيها حكومة الشام ، وانتهت الى الاتفاق على بقاء إدارة الاقضية الاربعة في يد هذه الحكومة ، وسحب القوى الافرنسية من بعلبك ، والاكتفاء باقامة ضابط ارتباط افرنسي فيها وآخر في راشيا ووهط افرنسي في رياق .

التجنيد واللجنة الوطنية

ولقد نبهت هذه الحادثة الافكار اكثر من ذي قبل الى ما يمكن ان تتعرض له سوريا من مواقف عصيبة باغية ، والى واجب التفكير في اعداد ما يمكن إعداده من الوسائل الدفاعية . فكان من ذلك ان قررت الحكومة التجنيد الاجباري ، وان انشئت اللجنة الوطنية في دمشق . اما التجنيد الاجباري فلم يأت في هذه الحقبة بثمرة ذات بال لانه كان ينقصه المنفذ القوي والمال والوسائل الفنية الاخرى، وكان الانكليز هم مصدر المال والوسائل او اهم مصدر له ، ولم يغيروا موقفهم السابق الذي اشرنا اليه من التجنيد وانشاء جيش سوري ، بل ازدادوا عناداً فيه لان المشاكل بينهم وبين الافرنسيين قد انتهت ، ولم يكن يعقل ان يشجعوا العرب على ما من شأنه الاخلال بما تم الاتفاق عليه او عرقلته . ولم يؤت القائمون بأمر العهد

عزيزة قوية تساعدهم على تدبير هـذا الامر باسلوب آخر ومن مصادر اخرى . وأما اللجنة الوطنية فان فكرتها نشأت في الحقيقة اثناء الازمة، حيث اخذ وجهاء الاحياء الدمشقية وشبابها يجتمعون بتوجيه رجال العهد للاستعداد للدفاع ، وأمكن تأليف لجنة عامة مؤلفة من مندوبي الأحياء ، ثم اشتركت الهيئات والأحزاب في هـذه اللجنة ، ولم تلبث ان اصبحت مظهراً شعبياً على شيء من الخطورة بسبيل الحركة الوطنية والدفاعية . وكان الشيخ كامل القصاب هو رئيس هـذه اللجنة التي ظلت قائمة الى آخر العهد الفيصلي .

-١٥-

حوادث تلكلخ وأثرها

وجاء فيصل من لندن الى باريس بناء على نصيحة لندن محطم الامل والاعصاب بعد ان رأى وسمع من الانكليز ما رأى وسمع . ولبث في باريس بضعة اسابيع شبه مهمل وكان لهذا وقع موجع اليم في الشام ؛ ولم تلبث ان اخذت تبدو بوادر العصيان المسلح ضد السلطات الافرنسية في جهات تلكلخ يدبرها ابطال الدنادشة. وقد كانت صلة رجال العهد والفتاة في الشام وثقى بهم ؛ فأمدوهم وشجعوهم حتى لقد اندمج بعض اعضاء الفتاة معهم في الحركات والروحات والغدوات . وقد كان لهذه الحركة أثر قوي في نفسية فيصل الذي انتعش بها اشد الانتعاش ، وفي اعصاب الافرنسيين الذين رأوا فيها بوادر متاعب قد تقوم في وجوههم في هذه البلاد بعد ان حسبوها برداً وسلاماً ؛ ولاسيما ان حركات ثورية اخرى كانت تنشب هنا وهناك وهنالك وتنطوي على مثل هذه البوادر وان كانت ضيقة المدى. فرأوا ان يجنحوا الى الدهاء والتخدير واتصلوا بفيصل بعد ذلك الاهمال الموجع واخذوا يظهرون له الحفاوة ، ثم اجتمع بكلمنصو وجرت احاديث مشجعة انتهت الى وضع نص الاتفاق المعروف باتفاق فيصل - كلمنصو ووقع بالحروف الاولى على ان يحمله فيصل ويعرضه على اهل الرأي في البلاد .

اتفاق فيصل – كلمنصو

وعاد فيصل الى الشام في اواسط كانون الثاني من عام ١٩٢٠ ، واخـذ يقوم باتصالاته واستشاراته ويقص على مستمعيه ما رأى وما سمع . ولقد كان الاتفاق محتوياً الاسس التالية :

١ – اعتراف فيصل بحاجة سوريا الى التنظيم والاصلاح وطلبه هذه المهمة باسم السوريين من فرنسا .

٢ – ضمان فرنسا لاستقلال سوريا وحدودها .

٣ – حصر المستشارين والمدربين والموظفين الفنيين اللازمين لتنظيم الادارتين المدنية والعسكرية في الافرنسيين بواسطة الحكومة الافرنسية .

٤ –حق المستشار المالي الافرنسي في اعدادميزانية النفقات والواردات ووجوب تبليغه جميع التعهدات والنفقات ، وحقه في مراقبة حصة سوريا من الديون العامة ، وتطبيق الشروط المالية الناجمة عن معاهدة الصلح مع تركيا فيما يتعلق بسوريا .

٥ – حق مستشار الاشغال العامة في الاشراف على الخطوط الحديدية .

٦ – حق الحكومة الافرنسية في الاولوية التامـة بالتعهدات والقروض ، والموافقة على قيامها بمهمة تنظيم الدرك والشرطة والجيش .

٧ – حق الحكومة الافرنسية بتمثيل مصالح سوريا الخارجية بواسطة ممثليها السياسيين وقناصلها .

٨ – الاعتراف باستقلال وسلامة حدود لبنان تحت الانتداب الافرنسي .

٩ – جعل اللغة الافرنسية اجبارية التدريس بصورة ممتازة .

١٠ – تمثيل فرنسا في سوريا بواسطة مندوب سام .

١١ – الاستقلال الذاتي لجبل الدروز .

١٢ – حرية ميناءي اسكندرونه وبيروت .

١٣ – استفتاء اقليات لبنان عند تحديد حدوده .

فيصل والاتفاق

وقد خطب فيصل اكثر من مرة في بيوت متعددة كان يقام له فيها حفلات ويشهدها جمهور من وجوه القوم ومتنوريهم . وكان في خطبه مؤيساً مرة ومطمعاً اخرى ، ومقدم رجل تارة ومؤخرها اخرى ، وناعياً على الشعب اكتفاءه بالاقوال وعدم اظهاره حماساً واستعداداً للافعال ، ومذكراً بأنــه في المواقف التي يقفها والامور التي يعالجها انما يستلهم ضميره وقناعته وخوفه من التاريخ ، وبأن الواجب يقضي بعدم التشدد بالعداء لاحد وعدم احتقار دولة من الدول ، مما يدل على ما كان يشعر به من خوف ويأس والم وخيبة كما يـدل على انــه كان في قرارة نفسه يفضل الجنوح الى قبول الاتفاق .

موقف المؤتمر والاحزاب من الاتفاق

ولقد وقف الناس إزاء هذا الاتفاق موقفين . ففريق وجد الحالة حرجة وانه لم يبق باب رجاء إيجابي إلا الموافقة عليه ، ولا سيما بعد نفض ايديهم ووقــوفهم موقف الغادر اللئيم ، وليس هناك استعداد وقدرة عـلى المخالفة والمقاومة ، وكان هذا يجد هوى في نفس فيصل ، وفريق وقف موقف الرافض المستنكر ، ورأى في النصوص خيبة أمل عظيمة ، وتناقضاً كبيراً بين الأمــل الواسع والمعروض التافه الذي لا يخرج عن معنى الحماية والسيطرة ، ووجد نفسه بين امرين : إمــا التسليم لفرنسة والرضوخ لسيطرتها وانتدابها وحمايتها ، وفي ذلك اندحار صريح من ناحية الأمل والمبدأ والهدف ، وتسجيل شنيع ضد حقوق الأمة وجهادهــا وضحاياها ، ووقوع في قبضة فرنسة وسيطرتها بالرضاء والطوع مع ما يعرفونه من تصرفاتها الباغية في لبنان والسواحل ثم في المغرب العربي ؛ وإما الرفض وفي هذا توكيد للأهداف وتأييد لها ولحقوق الأمة وجهادها وضحاياها . وكان معظم الفريق الأول من الشيوخ والوجهاء كما كان معظم الفريق الثاني من رجال المؤتمر والفتاة وحزب الاستقلال والهيئات القومية الاخرى الذين كانوا في غمرة مــن الحماس والنشاط والدأب مندفعين بقوة الروح الــتي خلقتها الحركة العربية التي

انتهت بالثورة ، ثم بقوة الروح التي خلقتها كذلك الحرب والمبادىء التي اعلنت فيها ، وبقوة الحق التي كانت تقوم عليها القضية العربية ،وبقوة الحقد الذي امتلأت به صدورهم من غدر الحلفاء ومكرهم . على ان هذا الفريق لم يتجاهل ضعف الأمة امام الاجنبي الطامع ، وضعف الامل بمساعدة الانكليز وتعضيدهم ، واحتمال وقوف فرنسة موقف الشدة والعنف والاندحار امامها في النهاية . غير انه رأى أن البلاد تكون من حيث النتيجة امام أمر واحد وهو خضوعها للسيطرة الافرنسية بالرضاء أو الكره، ورأى أن فرض السيطرة الافرنسية بالكره والقوة لا يضيع على الامة حقاً ولا يقيدها بقيود المهانة والخزي ، ولا يقمع من روح مقاومتها ونضالها في سبيل الاستقلال التام ، بعكس الحال في قبول السيطرة والرضاء بها . وقد اقترح البارزون من هذا الفريق أن تقف سورية موقف المتمرد على ما يراد لها من ذل وعوملت به من غدر ، وتحدث امراً واقعاً باعلان استقلال سورية بجميع اجزائها استقلالا تاماً وملكية الامير فيصل عليها طبقاً للرغبة التي اعلنها المؤتمر في قراره الذي قدمه الى لجنة الاستفتاء ، والذي تطابقت فيه الاكثرية العظمى من سكان جميع الانحاء السورية، واعتبار ذلك حقها الشرعي والطبيعي ، هذا الى ما وقع في نفوسهم من احتمال جوازهذا الامر الواقع بصورة من الصور ولو بالنسبة لسورية الداخلية . وقد كان رأي هذا الفريق هورأي معظم رجال الحركة والهيئات القومية واعضاء المؤتمر كما قلنا . وبالرغم من محاولات الفريق الاول ومحاولات فيصل نفسه فقد كان رأي هذا الفريق هو الغالب السائد .

ومما وقع في سياق التشاد والتدافع حول الاتفاق أن فيصلا طلب من الهيأه المركزية للفتاة رأيها خطياً فقدمته له ، ثم دعا كل عضو من اعضائها لحدة وطلب منه رأيه الخطي فقدمه له ، ثم طلب عقد اجتماع لمؤسسي الفتاة فاجتمعوا ، ومع ما وجه من حملات انتقادية الى الهيأة المركزية ومع انتهاء الامر الى استقالة الهيأة واختيار غيرها لانها شعرت أن الحملات كانت مدبرة لاحراجها فان اكثرية المجتمعين قررت رفض الاتفاق والسير في خطة احداث الامر الواقع المذكورة . فلم يسع فيصلا الا التسليم برأي الفريق الثاني واهمال الاتفاق والسير في الخطة المرسومة .

الدور الثاني من العهد الفيصلي

٨ مارس — ٢٤ تموز ١٩٢٠

- ١ -

اجتماع المؤتمر واعلان الاستقلال والملكية

وقد دعي المؤتمر السوري الى الاجتماع للنظر في الموقف فاجتمع بتاريخ ٦ مارس ٩٢٠ في بهو النادي العربي ايضاً ، واختير للرآسة هاشم الاتاسي ، واستمع الى بيان مفصل من فيصل عن القضية العربية وحق العرب باستقلالهم وحريتهم ، وما بذلوه في هذا السبيل من تضحيات ، وما كان من مواقف الحلفاء منهم ، وذكرهم بالمهمة الخطيرة التي يضطلعون بها ، واشار الى وجوب تقرير شكل الدولة التي يرغبون فيها ووضع دستورها ، وعدم نسيان النص على التضامن والاتحاد مع العراق في الحياة الجديدة التي تستقبلها البلاد .

ولقد كانت الافكار متطابقة كما قلنا على الخطة بحيث يمكن ان يقال ان المؤتمر انما اجتمع للتنفيذ اكثر منه للبحث ، فلم يلبث ان قرر في جلسته الثانية التي عقدها في اليوم التالي وسط عاصفة من الحماس والعاطفة في داخله وخارجه اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية والمناداة بفيصل ملكا دستوريا عليها . ووقع القرار من جميع اعضاء المؤتمر وقدم لفيصل بواسطة وفد من المؤتمر . وقد جاء فيصل بموكب رسمي الى المؤتمر حيث شكر المؤتمر وعاهده على الجد في العمل لتحقيق اماني البلاد ، واذيع القرار في ٨ مارس من قبل عزة دروزه سكرتير المؤتمر من على شرفة البلدية على الالوف المحتشدة في ساحة المرجة التي كانت تغمرها عواطف الحماس الجياش . وقد كان العلم السوري الجديد مرفوعاً اذ ذاك ، وهو نفس علم الثورة مضافاً اليه نجمة واحدة بيضاء في المثلث الاحمر ، وكانت المدافع تطلق طلقاتها احتفاء بهذا الحدث التاريخي العظيم .

وقد احتوى القرار في ما احتواه تبرير هذا العمل واستناده الى حق الشعب

الشرعي ودمائه المهراقة في سبيل حريته واستقلاله ، والى وعود الحلفاء ومبادىء الرئيس ويلسون ، والى اشتراك العرب في الحرب الى جانب الحلفــــاء وقيامهم بنصيبهم في ما ناله الحلفاء من انتصار شهد باثره كثير من قواد ورجال الحلفاء ، واحتوى كذلك مطالبة الحلفاء بالجلاء عن مختلف الانحاء السورية ومراعاة اماني اللبنانيين الوطنية في كيفية ادارة مقاطعتهم على ان يبقى بمنأى من كل تأثير ونفوذ اجنبي ، واعتبار المؤتمر مجلساً نيابياً وتأسيساً تكون الحكومة مسئولة امامه الى ان يمكن جمع مجلس نيابي منتخب آخر ، واعلان حق العراق بالاستقلال عـلى ان يكون بينه وبين سورية اتحاد سياسي واقتصادي نظراً للروابط التي تجعل القطر الواحد لا يستغني عن الآخر .

الدولة الجديدة

واقيمت حفلة تنصيب ومبايعة رسمية للملك في دار الحكومة فبايعه عدا اعضاء المؤتمر كبار الشخصيات الاسلامية والمسيحية الدينية والمدنية، وكان ممن حضروهنا المعتمد الافرنسي . اما المعتمد الانكليزي فانه تغيب عن دمشق . واحيط فيصل بابهة الملك في قصره وبطانته ومراسمه ، وتألفت اولى وزارة دستورية برآسة رضا الركابي روعي في تشكيلها تمثيل الساحل والجنوب ايضاً حيث عـــين رضا الصلح وزيراً للداخلية وسعيد الحسيني وزيراً للخارجية .

وقد القت الوزارة بيانها الوزاري امام المؤتمر السوري الذي احتوى اعلان رغبة المسالمة والولاء للحلفاء كسياسة خارجية والعمل عـلى تحقيق اهداف الأمة وترقيتها في مختلف شؤونهـا كسياسة داخلية ، والرجاء من المؤتمر بوضـع دستور الدولة الجديدة فنالت الثقة منه .

وأخذت الآلة تدور على الأسس الجديدة . وقـد اهتم لتنظيم فروع الادارة تنظيماً ثابتاً ، والسير في ما يجب السير فيه مـن خطط إصلاحية وعمرانية وتعليمية ، كما اهتم لتقوية الجيش في عدده ومعداته وإقامة بعض التحصينات الدفاعية الرسمية وتقوية بعض التشكيلات الدفاعية الشعبية ايضاً إستعداداً للطوارىء .



الملك فيصل الاول عند تتويجه في سوريا



الملك فيصل بسلم العلم الى لواء المشاة الاول بحضور وزير الحربية
يوسف العظمة

ولقد حرص القائمون بالعهد أن يجعلوا لكل وزير من الوزراء الذين كان معظمهم من الشيوخ مساعداً قوياً في معارفه وهمته وعقله من الشباب أو ما في أفقهم ليمكن تسيير أداة الحكومة تسييراً حسناً تقدمياً ومتطابقاً مع مقتضيات العهد والظرف والعصر من جهة ، وليمكن تخريج فريق من هذه الطبقة وتهيئته لاستلام مقاليد الأمور مباشرة في الوقت المناسب من جهة ثانية . ومن جملة ما كان من ذلك تعيين امين التميمي مساعداً لرئيس الوزارة وبوصف العظمة لوزير الحربية وصبحي حيدر لوزير الداخلية وجميل مردم لوزير الخارجية .

والحق إن العهد الجديد بالرغم عما كان يحدق به من أخطار ويقوم امامه من عثرات ويحيط به من مشكلات ويجري فيه من تيارات قد أخذ يسير في اتجاه إيجابي من شأنه أن يبعث على التفاؤل وأن يبرهن على صلاحية الأمة ، ويحقق ما كان يترسمه رجال العهد من آمال إصلاحية واسعة .

- ٢ -

المؤتمر في العهد الجديد

وقد اعد جناح واسع من بناية العابد الكبيرة في المرجة للمؤتمر السوري فانتقل اليه بعد قليل من اعلان الاستقلال ، ووضع لائحة لادارته الداخلية ، واختار نائبي رئيس واربعة سكرتيرين ومراقبين ، وألف لجاناً لدراسة المواضيع وغير ذلك مما يتسق مع صفته الجديدة كمجلس تأسيسي ونيابي معاً . وقد تشكل في داخله حزبان نيابيان أحدهما حزب التقدم وثانيهما الحزب الديموقراطي . واندمج في الاول أعضاء الفتاة والاستقلال ومؤيدوهم ، وفي الثاني الأعضاء الذين يحصون على الفتاة أخطاءً وينقمون عليها ذلك سواء كان الدافع بريئاً او غير بريء : وممن اندمج فيه كذلك بعض الوجهاء والأعيان من نواب دمشق وغيرها . وكانت مفارقة طريفة في تسمية هذا الحزب مع اندماج هؤلاء فيه . وخصص لكل حزب مكان اجتماع خاص في الجناح ، فكان كل حزب يجتمع لحدة لدرس المواضيع المهيأة

للمنافشة وتكوين رأي ثابت نوعاً ما فيها . وكانت اكثرية المؤتمر مندمجة في حزب التقدم الذي كان بمثابة حزب الحكومة بينما كان الحزب الديمقراطي بمثابة حزب المعارضة . وفي هذا تعبير عن الحقيقة في الواقـــع حيث كان الأول يمثل الفتاة والاستقلاليين ومؤيديهم وبالتالي يمثـل العهد الفيصلي بملكه وحكومتـه ورؤساء دوائره ؛ بينما كان الثاني يمثل المتذمرين والمعارضين والناقمين . ومـن طريف ما كان ان رياض الصلح الذي هو عضو في الفتاة اندمج في الحزب الديمقراطي وكان من ألسنته الذربة مع حسن صلاته واندماجه في الفتاة وحزب التقدم ؛ حتى لقد اعتبر بعضهم اندماجه في الحزب الديمقراطي لعبة من لعب الفتاة الحزبية .

ولقد اسبغ المؤتمر على نفسه الجد والوقار المتلائمين مع مهمته وحسن ادراكه لها . وكانت مداولاته قوية رصينة وخاصـة في مشروع الدستور الذي كانت لجنة الدستور قد وضعته ، والذي كان من اهم مشاغل المؤتمر المستمرة ؛ حتى ليصح ان يقال إن ما وسع الوقت لاقراره فيه من مواد هذا المشروع قد جاء قوياً محكماً تقدمياً . ولقد كان عدد كبير من اعضائه شباباً من ذوي الشهادات والكفاآت الثقافية والعصرية فساعد هذا على ما جاءت عليه هذه المواد مـــن القوة والاحكام والتقدمية . ولا نزال نذكر المداولات التي جرت في حقوق المرأة السياسية ومساواتها فيها بالرجل حيث كان جمهرة الاعضاء يرون حقوقها في ذلك طبيعية وكان ممن اندمج في هذا النقاش وايد تلك المساواة وهـذه الحقوق الشيخ سعيد مراد الغزي من نيري رجال الدين والحقوقيين الشرعيين ، فأسبغ موقفه عـــلى الموضوع خطورة ملموسة من ناحيته الايجابية . ولقد كان إقرار المواد المتصلة بهذه الحقوق ميسوراً جداً لان الاكثرية كانت مضمونة . ولم يمنـع من إقرارها إلا ما لاحظه بعض العقلاء من عدم ملاءمة الظروف القائمة وخشية اتخاذ الرجعيين والناقمين ذلك وسيلة للتشويش على العهد . ولو لم تكن هذه الظروف لسجلت سوريا سبقها إلى اقرار هذه الحقوق للمرأة على جميع البلاد الشرقية والاسلامية وبأسلوب قوي واسع على أن الحظ اسعفها لتكون السباقة على البلاد العربية الى اقرار شيء من هذه الحقوق في عام ١٣٦٨ – ١٩٤٩ .

المؤتمر العراقي في الشام

ومما يجدر تسجيله في هذا السياق أن رجالات العراق القوميين الذين كان منهم عدد غير يسير في دمشق عقدوا بالتطابق مع رجال العهد الفيصلي مؤتمراً في نفس اليوم الذي عقد فيه المؤتمر السوري ، وقرروا فيه اعلان استقلال العراق وملكية عبد الله بن الحسين عليه على أن يكون متحداً سياسياً واقتصادياً مع سوريا متطابقاً في ذلك مع ما قرره المؤتمر السوري بالنسبة للعراق ، وأذيع قرار العراق في نفس اليوم ومن على شرفة البلدية كذلك ، واذا لم تخنى الذاكرة فان توفيق السويدي هو الذي أذاع البيان ، فكان في هذا التوفيق للأهداف العليا للفكرة العربية والحركة القومية . وقد اتخذ العراقيون لدولتهم الجديدة علم الثورة مضافاً اليه نجمتان بيضاوان في المثلث الأحمر فكان في العلمين الجديدين السوري والعراقي رمزاً للوحدة والثورة العراقية معاً . والعلم العراقي ظل على ما هو عليه حينما تحقق استقلال العراق بعد ثورته الدامية تحت ملكية فيصل . أما العلم السوري فطوى عن سوريا الداخلية عقب انهيار العهد الفيصلي واحتفظ به في شرق الأردن الذي ما لبث ان سلخ عن سوريا الداخلية وغدا تحت الانتداب البريطاني وانشئت فيه الامارة الهاشمية العبدلية. وحينما سنح للسوريين ان يضعوا دستورهم عام ١٩٢٨ وان تقوم جمهوريتهم الأولى عام ١٩٣٢ بُدل وضع العلم ، مع الاحتفاظ بالألوان الأربعة وجعل في ابيضه الأوسط ثلاث نجم حُمر .

- ١٨ -

تعليقات حول رفض اتفاق فيصل كليمنصو

هذا ، ولقد انتقد فريق من الناس رفض اتفاق فيصل كليمنصو واعلان الاستقلال ، واعتبروا العمل تسرعاً وطيشاً وسبباً للكارثة التي هدمت العهد الفيصلي ؛ وحملوا مسئولية ذلك على الفتاة والاستقلاليين خاصة . ومنهم من زعم أن نصوص الاتفاق ليست شديدة الوطأة ، وأنها مما تسيغه حوصلة أمة ضعيفة لاعدة لها ولا انصار .

وقبل كل شيء نقول انه لم يرتفع صوت قوي بانتقاد أو اعتراض في حينه لا من صفوف الجمعيات والأحزاب ولا من الشخصيات البارزة ولا من أعضاء المؤتمر في داخله وخارجه . فجميع هؤلاء أو أكثريتهم الساحقة كانت متطابقة وليسوا جميعهم من الفتاة والاستقلاليين ، بل كثير منهم كان خصماً او مجرحاً لهم . واذا كان وقع شيء من انتقاد في حينه فانما كان همساً خافتاً غير مسموع . ولا يصح ان يعزى هذا الى الخوف من رجال العهد اوالفتاة والاستقلاليين فانه لم يقع حادث ارهابي ما في ذلك العهد على كثرة المجرحين والطاعنين والمنتقدين والجواسيس والمتلاعبين والدساسين المأجورين وغير المأجورين بل والذين لم يكن اندماجهم مع الأفرنسيين سراً خفياً ؛ فضلاً عن ما كان من ميل فيصل اليه ميل اليائس من نفسه وحلفائه ؛ وإنما لأن ذلك لم يكن سائغاً لا من قبل السواد الأعظم ولا من قبل الاوساط الوطنية والقومية على السواء ؛ هذا الى ان الهمس الخافت انما كان من أناس ليست لهم صلة بالحركة القومية والنضال القومي على الاغلب . اما من ناحية نصوص الاتفاق فهي موجودة وقد نقلنا خلاصتها ، وكل منصف عاقل فيه إحساس بقومية ووطنية وكرامة قومية ووطنية اذا درسها وذكر في الوقت نفسه ظروف عهد الشام وما قبله لا يمكن الا ان يرى فيها ضربة شديدة على الأمال الواسعة التي كان رجال الحركة يبنونها في صدد تحقيق أهدافهم .

والانتقاد غير الهامس إنما كان في الحقيقة بعد انهيار العهد الفيصلي . والمنتقدون أقسام ، منهم ذوو نيات حسنة ومنهم مغرضون حاقدون ومنهم ضالعون مع الاجنبي . والأولون كانوا على الاكثر من المتفرجين ، انكسرت قلوبهم من فظاعة ما وقع فأخذوا يضربون كفاً على كف ويندبون الطالع المنكود ، ويوجهون النقد واللوم الى هذا وذاك ، ويستجيبون الى دعاة اللوم والتجريح بسهولة وهذه حالة مألوفة عامة في كل زمن ومكان . وقد تأثر هؤلاء الى حد كبير بدعاية الفريقين الأخيرين التي اخذت تنبث ، وانساقوا وراءها دون ان يتثبتوا من الصحيح والزائف ودون أن يحصوا الأمور ويتدبروا الظروف والوقائع . ولعل ما كان من تفاهم فيصل مع انكلترا في أمر العراق وما كان من ظواهر ومظاهر استقلال العراق نتيجة لذلك كان من المؤثر في موقفهم الانتقادي . والمغرضون الحاقدون

اندفعوا في انتقادهم بسائق الهوى والحزبية والشخصية ، فمنهم الحانق لحرمانه مما كان يتوق اليه من منصب وجاه ، ومنهم المغيظ من بروز الفتاة والاستقلاليين الذين قبضوا على زمام العهد فوجدوا في النتيجة المشئومة مجالاً للنقد والتجريح والتشفي . ومن الظواهر العجيبة التي تدل على الضعف الاخلاقي ان كثيراً من أفراد هذا الفريق وزعمائه كانوا مندمجين في حركة الشام وعهد فيصل قبل اعلان الاستقلال وبعده ، وكان منهم البارز فيه ، ومنهم المتضامن مع العاملين فيه والمشترك في مسئوليته واحداثه ، ومنهم الاعضاء في المؤتمر والموقعون على القرار والمسارعون الى البيعة، ولم يرتفع منهم اي صوت او رأي او معارضة ضد ما وقع وتقرّر في حينه ، بل كان منهم المتظاهر بالمعارضة والعناد والتعنت اكثر من غيره.
اما الضالعون مع الاجنبي فامرهم هين . فقد كان الاتجاه الذي وجهوا فيه هو اخماد روح القومية والوطنية بالتهديم والتحطيم والتثريب والتثبيط وابراز ضعف الامة وعدم استطاعتها الوقوف امام فرنسا والنضال معها ، وضرورة مسايرتها والحالة كذلك ، واخذ ما يمكن اخذه ما دام لا يمكن اخذ الكل ، وجعل السواد يفقد ثقته برجال حركته ونضاله . ولقد اثبتت الأيام ان الفريق القومي الذي قاد حركة الرفض للخضوع لانتداب فرنسا ونفوذها والتمرد على ما اريد للأمة من ذل وهوان كان على حق في فكرته وموقفه وان الامة قد ظلت تؤيده في ذلك وان الندم على ما كان من عدم الموافقة على اتفاق يقوم على أساس الاعتراف بالانتداب والسيطرة الأفرنسية لم يكن صادقاً معبراً عن رأيها ، وذلك في الثورات التي ثارتها ثم في الالتفاف حول رجال حركتها النضالية الوطنية الذين كانوا يرفضون باستمرار كل عرض يقوم على مثل هذا الاساس ، والذي كان يعرض عليهم باشكال متنوعة واوقات متفاوتة من بعد عهد فيصل ، تخلصاً من الموقف السلبي الذي وقفته والذي كانت تتجلى فيه روح المقاومة بكل شدتها وروح الرغبة في الحرية والكرامة والاستقلال بكل قوتها ، وفي تأييدها لهم واستجابتها الى دعوتهم وتضحيتها بالمال والنفس وتحملها الشدائد والبغي في سبيل ذلك . ولقد اعيا الامر الافرنسيين اخيراً بعد حبوط التجارب العديدة والعروض المتنوعة وبعد عجز الأشخاص الذين نصبوهم وحاولوا ان يقيموا امرهم على ايديهم فلم يجدوا مناصاً من العدول عن التجارب ،

والاذعان للحق ومد اليد الى رجال الامة والحركة والموافقة على عقد اتفاق لا يقوم على ذلك الأساس ، ويحتوي اعترافاً صريحاً بسيادة الأمة واستقلالها ، فكان ذلك العهد الوطني الذي قام عام ١٩٣٦ على ايدي رجال كانوا أو كان جلهم يمت الى المؤتمر والفتاة والاستقلال ، وهم الذين يوجه اليهم اللوم والتجريح ... ومن الغريب أن من الذين انتقدوا الفكرة في ما بعد مع اندماجهم في مسئوليتها وتشددهم في عهد فيصل وقفوا في معاهدة عام ١٩٣٦ موقف المحرج ورأوا فيها تساهلاً او تفريطاً في حقوق الامة وضحاياها ! وفي هذا البرهان الساطع على الغرض والهوى .

ونحن اذ نشير الى معاهدة عام ١٩٣٦ لا نريد ان نقول انها كانت متطابقة مع الاهداف والمبادىء التي كان يعمل لها رجال الفتاة والمؤتمر والحركة العربية ، وانما اردنا التدليل بها استطراداً الى تصوير موقف الغرض والهوى . اما المعاهدة فقد كان رأينا فيها انها تصح ان تكون محطة يوقف عندها للاستجمام ، وكتبنا بهذا الى بعض اخواننا من اقطاب عهد هذه المعاهدة .

- ٣ -

وعهد الاستقلال والملكية قد استمر اربعة اشهر ونصف ٨ مارس - ٢٤ تموز ١٩٢٠ . وقد كان سلسلة متصلة الحلقات من التوتر والقلق والغدر والتآمر .

الانكليز والعهد الجديد

فالانكليز كانوا اول من ابدوا الجفاء في تغيب معتمدهم عن دمشق لئلا يحضر حفلة التنصيب والتهنئة مع ان زميله الافرنسي الذي كان الأولى بالجفاء والتغيب

شهد الحفلة وهنأ مع المهنئين . (١) وقد بادر الجنرال اللنبي الى الابراق لفيصل يعلمه ان ما جرى هو في حكم العدم . وكان الملك بعث نوري السعيد موفداً من قبله إلى باريس ولندن ليبسط لحكومتيها أسباب ما كان ويؤكد لها الرغبة الصادقة في الولاء والتعاون ، وحمله كتابين منه ولكن الحكومتين أجابتاه بعدم الاعتراف بقرار المؤتمر ودعتاه الى اوروبا لبسط قضيته . ويبدو ان ذكر فلسطين والعراق خاصة قد اغاظ إنكلترا حيث سارع اللورد كورزون وزير الخارجية إلى الابراق إلى فيصل يقول إن بريطانيا لا تعترف لأي هيئة في دمشق بحق التكلم عن فلسطين والعراق ، كأنما غدا هذان الاقليمان ملكاً لها فلم يعد لأهلها حق الكلام عنها ، ولقد كانت من القحة ما جعلها تصم اذانها وتغلق ضميرها أمـــام صرخات الشعب العربي برمته في فلسطين طيلة ثلاثين عاماً ! وقامت السلطات الافرنسية في الساحل بالتأليب على دمشق وقرار مؤتمرها تهدف به إلى بث الخوف في النصارى وخاصة في الموازنة من العروبة والاسلام وفيصل والشرفاء الخ .

مؤتمر سان ريمو وتوزيع الانتدابات وأثره في الشام

وفي ٢٦ نيسان ١٩٢٠ قرر الحلفاء في مؤتمر سان ريمو توزيع الانتدابات واعطي لفرنسه الانتداب على سوريا ولبنان ، ولانكلترا على العراق وفلسطين مع شرق الأردن ، فكان ذلك تتويجاً لغدر الحلفاء للعرب وتآمرهم على بلادهم والذي بدأ في أثناء الحرب وقبـــل أن يجف مداد عهود بريطانيا للحسين وهكذا سجل هؤلاء الحلفاء الأعداء على أنفسهم في قرارهم هذا عار الكذب والغدر والخديعة والمتاجرة

(١) جاء في كتاب الثورة العربية ج (٢) ان رضا الركابي لما استشير في اعلان الاستقلال ابدى ملاحظة على ما في هذا من استعجال وان فيصلا قال له انه متفاهم على ذلك مع فرنسا ، وان فيصلا زار بيروت قبل الاعلان والتقى بغورو واستمزجه في الأمر فلم يبد منه اعتراض . وليس عندنا ما يثبت هذا او ينفيه . وقد سألنا عوني عبد الهادي سكرتير الملك فيصل فلم نجد عنده ما يثبت ذلك ولقد نقل صاحب الكتاب المذكور نص اذاعة اذاعتها السلطات الافرنسية في بيروت تكذب ما يشاع من ان ما تم في الشام كان بموافقة فرنسا تكذيباً باتاً ، مما قد يدل على ان لما قيل إصلا بشكل ما وان كنا نستبعد ان يكون غورو قد شجع فيصلا تشجيعاً صريحا او ضمنياً .

بدماء العرب وثقتهم . والمتبادر أن لقرارات مؤتمري الشام السوري والعراقي أثراً في التفاهم بين بريطانيا وفرنسا على التعجيل في توزيع الانتدابات ، حتى تصبح كل منها حرة في العمل في مناطق إنتدابها من جهة ولئلا يطول الأمر فيحدث مالا يحمدون عقباه في الشام والعراق من جهة اخرى .

وقد أبلغ القرار في اليوم التالي من الجنرال اللنبي الى الملك فيصل مع الالحاح عليه بالسفر الى اوروبا ليتمكن من بسط قضيته ، لأن وضعه لا يمكن ان يستقر الا بواسطة مؤتمر الصلح كما ان رئيس الوزارة البريطانية ارسل اليه بلاغاً يعلنه فيه قبول فرنسا مهمة مساعدة سوريا وارشادها التي عهد اليها بها مؤتمر الصلح والتي لا بد منها لها بعد ان لبثت دهراً طويلاً راضخة للاستعباد ، وخرجت من الحرب منهوكة القوى . وقد احتوى البلاغ وصف أهل سوريا بالشعوب والامم

فكان لكل ذلك رد فعل شديد في سوريا ، فسارع فيصل الى الاحتجاج وأخذ القائمون بالعهد يعملون جاهدين على تقوية الدعاية العربية ولفت الأنظار ألى العهد الجديد وتوثيق الصلات بينهم وبين رجال الأنحاء السورية الاخرى وهيئاتها من جهة ، ويتخذون ما يستطيعون من تدابير بسبيل توطيد اركان العهد وتثبيت دعائم الدولة الجديدة والدفاع عنها من جهة ثانية .

استقالة الوزارة الركابية وقيام الوزارة الاتاسية الدفاعية

ولقد كان ملموساً منذ الأصل ان رئيس الوزارة لم يكن متحمساً لاي موقف قوي دفاعي ولم يكن واثقاً في جدوى ذلك وامكانه ، وأن وزارته أضعف من أن تحمل عبء موقف عصيب . فلم تر الفتاة بداً من حمله على الاستقالة بالتطابق مع الملك . ومما وقع ان مؤسسي الفتاة اجتمعوا في بيته واخذوا يوجهون اليه حملاتهم الانتقادية على مواقفه وتصرفاته وطلبوا منه الاستقالة فاستقال في ٣ مايس ١٩٢٠ واختير هاشم الاتاسي خلفاً له (١) . وقد ادخل في وزارته يوسف العظمة وزيراً للحربية والدكتور عبد الرحمن شهبندر وزيراً للخارجية وكان الاثنان خاصته

(١) خلف هاشم الأتاسي في رئاسة المؤتمر السيد رشيد رضا

يمثلان الفكرة الوطنية المتطرفة والدفاعية . والقى وزير الخارجية بيان الوزارة امام المؤتمر وقد احتوى عهداً بتحقيق قرار المؤتمر باستقلال سورية بحدودها الطبيعية ورفض أي مداخلة اجنبية مع رفض السياسة الصهيونية ، وطالب بعض اعضاء المؤتمر بأن تضيف الوزارة الى عهدها عهداً بالدفاع فسارع الدكتور الى القول ان الوزارة دفاعية وما قامت الا لأجل الدفاع وستدافع حتى النهاية فمنحها المؤتمر ثقته.

وقد كان من الخطوات الأولى التي خطتها الوزارة تمشياً مع المهمة التي اخذتها على عاتقها والصفة التي اتصفت بها تقرير عقد قرض داخلي والتجنيد الاجباري والسير في تنظيم الجيش سيراً حثيثاً مما أنعش الآمال واثار الحماس . ومن الجدير بالتسجيل انه لم يمض الا وقت قصير حتى اخذ التنظيم يؤتي اكله، فقد اقيمت حفلة استعراض وتسليم علم لاحدى الفرق الجديدة شهدهـا الملك وكانت تحمل البشرى السارة لو فسح الزمن للعهد اكثر مما فسح .

اثر النشاط الجديد في فرنسا

ولقد قوبل هذا النشاط من الجانب الافرنسي باشتداد التجهم والتوتر وبتقوية المناوأة للحركة والدعوة العربية ، وبالتشدد في العنف والمطاردة ، ثم بتقوية روح العداء ، واثارة المخاوف في نفوس النصارى من المسلمين والعروبة وعهد الشام . ولقد بلغ من تأثير نشاط الدعاية العربية ان اقدم بعض خطباء المساجد في بيروت على الدعاء للملك فيصل في خطبة الجمعة فقامت قيامة السلطات لافرنسية واعتقلت الخطيب ونفته فكان هذا سبباً للهياج بين المسلمين ووسيلة قوية للدعاية العربية ضد تدخل الافرنسيين في حرية المسلمين الدينية ومساجدهم، فلم ير الافرنسيون بداً من إعادة الخطيب من منفاه والتنصّل من التدخل في الامور الدينية .

حوادث الجولان وجبل عامل

ولقد كانت الدعايات والتحريضات قد أدت في منطقتي الجولان وجبل عامل المتجاورتين واللتين كانت ثانيتهما تحت الاحتلال الافرنسي وأولاهما تحت الحكم العربي الى بعض الاحتكاكات العدائية بين المسلمين والنصارى فيهما فلم تلبث بعد اعلان الاستقلال والملكية ان اخذت تتسع ويبدو على مسرحها بعض صور حرب العصابات من الجانبين نصرانية مسلحة بالسلاح الافرنسي ومدبرة باليد الافرنسية تحت ستار الدفاع عن النفس ورد العدوان ، واسلامية مسلحة بالسلاح العربي ومدبرة باليد العربية بقصد احباط دسائس الافرنسيين وتحريضاتهم وعرقلة اهدافهم فكان هذا من ابرز اهداف هذا العهد والاسباب الداعيه الى اشتداد التوتروخروج الموقف من نطاق الدسائس والمؤامرات الخفية الى أفق العمل الرسمي العنيف .

- ٤ -

النشاد في شأن سكة حديد رياق حلب

وقد كانت الفصائل الافرنسية المحتله للقسم الشمالي من حلب من اراضي الدولة العثمانية تشتبك مع العصابات التركية في اوائل الحركة الكمالية ، وكانت السلطات الإفرنسية مضطرة الى امداد فصائلها بالمؤن والسلاح ، فرأت أن ترسل امدادهـا عن طريق سكة حديد رياق - حلب ، وطلبت من الحكومة العربية أن تسمح بذلك وان تكون قطاراتها مصونه غير خاضعة للتفتيش في المحطات . وكل هـذا الطلب موضع أخذ ورد وجدل بين الحكومة العربية والسلطات الإفرنسية في بيروت ، وكان رجال العهد يرون في التسليم بهذا اعترافاً بنفوذ فرنسة وتمتعهـا بامتيازات عسكرية من جهة ، وتسهيلا للقضاء على مصدر ازعاج لقوى فرنسة يشغلها عن التفرغ للشام ويحول دون خطوة باغية منها ضد عهدهم من جهة اخرى ، فوقفوا يعارضون تلبية الطلب . وقد رأى فيصل ان يتخذ من الموقف فرصة مساومة فطلب

من الجنرال غورو أن تعترف فرنسه مقابل اجابة الطلب باستقلال سورية التام وبوحدتها الطبيعية وبشكل الحكم الذي قام فيها . فأثار هذا الطلب ثائرة غورو ورفضه ، واقترح على حكومته التفاوض مع الكماليين الذين اخذوا يوطدون كلمتهم ويفرضون انفسهم في الاناضول ويربحون بعض المعارك في الجبهة اليونانية ومناطق العصابات الأرمنية وغيرها من مناطق الحركات المضادة التي كانت تغذيها اليد الانكليزية ، حتى تتفرغ القوى الافرنسية وتقوم بخطوتها الحاسمة ضد الشام التي كانت تسير جاهدة في تقوية بنيان دولتها وتعزيز جيشها ووسائل دفاعها الرسمية والشعبية . وقبلت فرنسة الاقتراح وأرسلت مندوبها تفاوض الكماليين.

التفاهم الافرنسي الكمالي واثره

وانتهت المفاوضة الى الاتفاق بين الفريقين أخلى الافرنسيون بموجبه منطقة كليكيا (اضنه) ووافقوا على بعض تصحيحات حدودية لصالح الاتراك . ولم يلبث أن اخذ أثر التفرغ يبدو في الحملات التي جهزتها السلطات الافرنسية ضد العصابات العربية حيث انزلت في القرى العربية المشبوهة بالتآمر مع هذه العصابات في جبل عامل ضربات شديدة ، وحيث نجحت في إضعاف حركة هذه العصابات بعض الشيء . ومثل هذا الاثر بدا كذلك ضد الحركة الثورية التي كان يقودها الشيخ صالح العلي على السلطات الافرنسية في جبال اللاذقية منذ اوائل سنة ١٩١٩ نتيجة لعدوان هذه السلطات .

حادث مجلس ادارة لبنان

ومما وقع في هذه الآونة حادث مجلس ادارة لبنان حيث تمكن بعض العرب القوميين من حمل اكثرية اعضاء مجلس الادارة على توقيع قرار بالمطالبة باستقلال لبنان السياسي واتحاده الاقتصادي مع سورية ، ومن تشجيعهم على السفر الى اوروبا عن

طريق الشام للعمل على تحقيق قرارهم . وقد قبضت السلطات الافرنسية على الاعضاء ونفتهم ثم الغت مجلس الادارة بزعم أنه لم يستطع أن يقوم بمهمته النيابية . وكان للحادث اثر سيء في نفس هذه السلطات التي اعتبرته حلقة من حلقات النشاط والكيد والازعاج التي يقوم بها رجال العهد الفيصلي .

- ٥ -

عاد فيصل وقلقه

ولقد كان فيصل موزع النفس قلق البال منذ بدء العهد الجديد في صدد المستقبل ومدى الانتداب واثره واشتد هذا فيه في الآونة الاخيرة، يدل على ذلك خطابه الذي القاه في وليمة افطار رمضانية في قصره دعا اليها اعضاء المؤتمر وغيرهم من رجال السياسة والرأي وذوي الشأن ؛ حيث تساءل عن مدى هذا الانتداب وعما إذا كان الموقف موئساً لا علاج له الا بالمجازفـــة ، وأخذ يسكن الخواطر ويبدي بعض التفاؤل والرجاء، ويقول اننا لم نحكم بالاعدام فلا ينبغي علينا أن نتصرف كمن هو محكوم عليه به فيجازف بكل شيء ، ويوصي بالجد والرزانة والتروي مع تقوية الحكومة بالمال والرجال . وخطر لباله ان يسافر الى اوروبا استجابة للدعوة الانكليزية الافرنسية السابقة التي وجهت اليه على اثر اعلان الاستقلال والملكية .

تفكير فيصل في السفر الى اوروبا

ومن الواضح ان هذا الخاطر جاء للملك متأخراً وبعد ما بدت آثار تفرغ القوى الافرنسية ، منذرة بالنتائج الوخيمة ، وبعدما لمس من غورو النيات المريبة الباغية التي ظهرت بوادرها في ما كان من تسيير السرايا وضرباتها الشديـدة في جبل عامل وجبال اللاذقية ، وفي حشد القوى على الحدود واقامة القواعد الحربية فيها ، فلم يكن ذا جدوى ، فضلا عن انه لم يكن من شأنه تغيير ما تم من اقرار الانتداب الافرنسي واطلاق يد فرنسة في سوريا .

انذار غورو الشفوي

ولقد ارسل الملك نوري السعيد الى بـيروت لتهيئة اسباب سفره بالاتفاق مع السلطات الافرنسية فاستسنح غورو الفرصة وحمل نوري السعيد انذاراً شفوياً للملك يعلنه فيه تعليق الموافقة على سفره على قبوله الانتداب دون قيد وشرط ، وارجاع الجيش السوري الى حالته قبل اعلان الاستقلال والموافقة على احتلال محطات سكة حديد رياق حلب واحتلال هذه المدينة ايضاً ، ويبلغه انه لا يوافق على سفره ما لم تتم هذه التسوية ، وان الحكومة الافرنسية لن تستقبله وتحادثه إذا سافر قبل ذلك عن غير طريق بيروت . وقد أرسل ثاني يوم هـذا الانذار بعض الفصائل فاحتلت محطتي رياق والمعلقة .

ولقد سارع الملك فاحتج على الانذار وخاصة على منعه من السفر تلبية لدعوة الحلفاء، ثم ارسل مذكرة احتجاجية الى الحلفاء واشار فيها الى تحشيد القوات الافرنسية وحركاتها المريبة . ودعـا المؤتمر الوزارة فادلت ببيان عن الموقف مقررة انها مع رغبتها في المسالمة والتواد لن تقبل بأي شيء يمس الاستقلال والشرف الوطني وانها مستعدة للدفاع بكل ما تستطيع من قوة عنها .

انذار غورو الخطي

على ان غورو تابع خطوته فأرسل في ١٤ تموز ١٩٢٠ مع رسول عسكري خاص للملك انذاراً خطياً مع مذكرة يناشد فيها اخلاقـــه ووطنيته بأن يصغي لصوت الحكمة وان يقبل الانذار وان لا يسير في معالجة قضيته برأي حكومته التي لا تمثل إلا الاحزاب المتطرفة . وقد كان الانذار طويلا مرد فيه ما كان من مواقف الشام نحو فرنسا والمنطقة التي تحتلها من رفض الانتداب الى الدعـــايات والتحريضات العدائية المثيرة الى حركات العصابات الى اضطهاد اصدقاء فرنـسا من الدروز وغيرهم وايواء اعدائها وتأليبهم عليها الى قرار المؤتمر السوري الخ .. ثم انتهى بطلب قبول الانتداب الافرنسي، والتعامل بالورق النقدي السوري، ومحاكمة مديري العصابات،

والموافقة على التصرف بسكة حديد رياق - حلب واحتلال محطاتها واحتلال مدينة حلب نفسها ؛ وعين مهلة اربعة ايام لقبول انذاره جملة ، وانذر بأن فرنسا تكون مطلقة اليد في حال رفضه ولا تقع عليها تبعة ما قد يحل في البلاد من مصائب حيث تقع هذه التبعة على حكومة الشام .

- ٦ -

اثر الانذار وآراء الاحزاب والهيئات

ومع ان هذه العاقبة كانت متوقعة فقد هزّ الانذار الاعصاب والأفكار هزّاً عنيفاً بطبيعة الحال ؛ فاعلنت الادارة العرفية لمنع الشغب والهياج ، واتخذت من جهة بعض التدابير الدفاعية ومن جملتها تعيين الامير زيد قائداً عاماً وياسين الهاشمي الذي كان قد اعيد من منفاه قبل بضعة اسابيع قائـداً لجبهة مجدل عنجر الامامية ولدمشق ، واخـذ رجال الحكومة والمؤتمر والفتاة والهيئات القومية الاخرى من جهة ثانية يجتمعون للتشاور والتداول في جو متجهم متوتر ، وكان البـــلاط محور الحركة والاجتماعات .

ولقد انقسم الناس فريقين ، فريقاً يرى ضرورة الجنوح للسلم والتسليم والعمل على تهدئة الحال وتعديل المطالب ، وفريقاً يرى ان الواجب يقضي بالوقوف موقف الدفاع الى آخر امكان . ولم يكن هذا الفريق الذي كان يضم جمهرة اعضاء المؤتمر والفتاة وحزبي الاستقلال والعهد يجهل ان القوة العربيـة قد تندحر في النهاية ، إلا انه كان يعتقد ان النتيجة واحـدة سواء في حالة الاستسلام والخضوع او في حالة الدفاع والاندحار ؛ من حيث وقوع البـلاد تحت سيطرة الافرنسيين وتحكمهم ، وان الامر مادام كذلك فالمتسق مع كرامة الامة والقضية وجهاد العرب واهداف الفكرة والحركة العربية ان يكون هذا المصير بالقوة والاكراه وبعد بذل الجهد في الدفاع والوقوف موقف الكرامة والشرف . هذا إلى انهم كانوا يظنون ان في امكان القوى العربية الرسمية ان تصمد مدة ما ، وان في الامكان ايضاً ان تدخل التشكيلات الشعبية الدفاعية في ميدان الجهاد على شكل حرب عصابات ، فيكون

هذا وذاك حركة قوية من شأنها ان تلفت نظر العالم الاوروبي وان تحمله على التدخل في الأمر وايجاد حل فيه كرامة وشرف . وكان ظنهم هذا قائماً اولاً على ما كان ملموساً من تقزز الافكار الاوروبية من اي حركة حربية جديــــدة بعد ما قاسى العالم ما قاساه من ويلات الحرب وبلائها مما ظهر آثاره فيما كان من مواقف فرنسا وايطاليا وانكلترا من الحركة الكمالية ، وثانياً على ما فهموه من وزير الحربيـة يوسف العظمة من امكان الوقوف مدة من الزمن في وجه الغزاة ، وعلى ما رأوه فيه من عزم وتصميم على الدفاع ، وثالثاً على ما كان قائماً من حركات عربية مسلحة ضد الافرنسيين في الجولان وجبل عامل وجبال اللاذقية وجهات انطاكية وشمال حلب واحتمال توسعها ، ورابعاً على الامل بنجاح ما كان بدىء في تهيئته من القوى الشعبية المسلحة في بعض الانحاء ، ولاسيما ان مطامع الافرنسيين في سوريا وعدائهم للحركة العربيـــة وللعهد الفيصلي اشد من ان يؤمن لهم إذا استسلم العرب لهم وخضعوا لحكمهم وانذارهم . وقد اثبتت الحوادث صدق هذه النظرية ، فقد قبل الملك ورجال الحكومة انذار غورو وشروطه الجديدة وسرّحوا الجيش فلم يفدهم هذا شيئاً ، بل استغله غورو في القضاء النهائي على هذا العهد .

العسكريون واستطالة الدفاع

على ان معظم الرجال العسكريين وفي مقدمتهم ياسين الهاشمي الذي اعتذر بعد قليل عن مهمة قيادة الجبهة اضعفوا بعد اجتماع خاص لهم إحتمال أي نجاح في المقاومة العسكرية ، أو أي إمكان للاستمرار فيها مدة ما بحجة ضعف الجيش العربي عدداً وعُدداً بالنسبة للقوى الافرنسية . فكان هذا من مثبطات عزم الملك الذي كان مبلبلاً من جهة وميالاً الى ايجاد تسوية صالحة بقدر ما يمكن بدون اشتباك حربي من جهة اخرى ؛ كما اثر في عزيمة رجال الحكومة وفريق آخر من رجال السياسة والمؤتمر ، فتغلبت فكرة المسالمة ومحاولة انقاذ الموقف .

قبول الانذار والتسرع في التنفيذ

وتقرر قبول الانذار مبدئياً وارسال وفد مؤلف من ساطع الحصري وجميل الايلشي لمقابلة غورو والبحث معه في تمديد المهلة وادخال بعض التعديلات على المطالب ، واعطي جواب الموافقة للمعتمد الافرنسي ليبرق به لغورو كما ارسل الملك اليه برقية . وقبل أن يأتي جواب غورو على البرقية صدرت الاوامر بتسريح الجيش ورفع التحصينات الأمامية من مجدل عنجر وتوقيف جلسات المؤتمر علامة للمسالمة والتسليم . وكان هـذا التسرع خطأ فاحشاً لمس فيه غورو ضعف الملك وحكومته فاستغله في الخطوات التالية كما ادى الى طروء النفور بين الملك وفريق كبير من رجال المؤتمر والفتاة الذين ظلوا يقولون بالمقاومة مهما كانت النتيجة وبوحدة النتيجة مع الكرامة والشرف في الموافقه دون الاستسلام والخضوع ، وينذرون بسوء نيات فرنسا على كل حال نحو الشام .

حالة الشام العصبية في الايام الاخيرة

ولقد كانت الحالة في دمشق في الايام السنة الاخيرة من أيام العهد الفيصلي ١٨ - ٢٤ تموز ١٩٢٠ على أشد ما يكون من توتر اعصاب وبلبلة خواطر وهياج إفكار واضطراب أوراء بما هو طبيعي لأن العهد في اشد معاوك فنائه وبقائه .

المؤتمر في أيامه الاخيرة

وقد عقد المؤتمر في الايام الثلاثة ١٧ - ١٩ تموز عدة جلسات كان ينـدد فيها بكل موقف فيه خضوع واستسلام ، ويدعو الامة الى المقاومة والدفاع عن شرفها وكيانها واستقلالها ، ويرسل الوفود لمقابلة الملك . وكثيراً ما احتدم الجدل بين وفود المؤتمر والملك في صدد الموقف . وقـد دعا الوزارة اخيراً الى المثول أمامه فـلم تأت معتذرة بأنها تنتظر جواب غورو ، وفي مساء يوم ٩٩ تموز جاء

رئيس الوزارة ووزير الحربية الى المؤتمر وتلا الاخير مرسوم الملك بوقف الجلسات وطلب من الاعضاء الانصراف . وكان المؤتمر قد شعر بهذا المصير فقرر في جلسة ظهر اليوم المذكور نص بيان أذاعه احتج فيه على أي موافقة من شأنها الاخلال بقراره الصادر في السابع من شهر مارس ١٩٢٠ واعلن بطلانها وحمّل كل من يندمج فيها المسئولية تجاه الوطن والأمة ، واكد ان استقلال البلاد بحدودها الطبيعية استقلالاً تاما لاشائبة فيه هو المعتبر الذي يظل قائم الحكم لأنه مستند الى حق الأمة المشروع ورغبتها الصريحة الحرة مهما حاولت القوة أن تفعله ظلماً وبغياً .

وأخذت تقوم المظاهرات الصاخبة يومياً مطالبة بالمقاومة والدفاع وهاتفة ضد كل تفريط وخضوع . وكانت اللجنة الوطنية محركة هذه الحركة الشعبية ومحورها حتى لقد كان من آثار هذه الحركة أن هاجم الجماهير القلعة، وان استولت على بعض السلاح من المستودعات بحجة التسلح والاستعداد للدفاع ، وان جرت بعض الاشتباكات بين الهاجمين وقوى الامن واريقت بعض الدماء . ولا نزال نذكر تلك الليلة الليلاء التي وقعت فيها هذه الحادثة وكيف كانت اصوات العيارات تتجاوب في أنحاء دمشق قوية مرعبة .

تلاعب غورو

ومع ان الملك والحكومة بالرغم عن كل ما كان من هياج واحتجاج كانوا قبلوا الانذار وارسلوا وفد المفاوضة الى غورو على ما ذكرنا سابقاً فإن هذا امر جيشه بالزحف مستغلا فرصة ما رآه من الهلع وتضعضع الأعصاب في الشام ومسارعة المسئولين الى تسريح الجيش ورفع التحصينات وتوقيف جلسات المؤتمر . ولما اجتمع الوفد به زعم له ان برقية القبول قد تأخرت عن المهلة المضروبة ، وان الجيش بعد ان زحف لا يستطيع أن يقف الا في مكان ملائم من الوجهة العسكرية ومن وجهة وفرة الماء .

ونقول استطراداً أن قصة تأخر البرقية حينما سمعت بدت لغزاً حتى لقد ثارت الشبهات ضد دائرة البرق وكان يتولى مديريتها حسن الحكيم . غير أن التحقيق

أثبت أنها اعطيت فوراً لمقر غورو مما دل علي ان دعوى غورو إنما كانت لعبة القوي القادر الذي لا ضمير له مع الضعيف . على ان الوفد قال لغورو إن الملك قد ارسل اليه برقية خاصة بالقبول وإنه اجاب عليها ، فعمد الى نفس اللعبة قائلاً إن برقية الملك لم تكن تحتوي إخباراً بتنفيذ الشروط واحداً واحداً لأنه إنما كان ينتظر ذلك ، مع انه رأى ان حكومة الشام قد اخذت في تنفيذها ، بل ونفذت اشدها خطورة أي تسريح الجيش ورفع التحصينات وسحب القوى الأمامية . ولما طلب الوفد توقيف الجيش حيث هو ابى إلا بشروط جديدة قال عنها إنها ضمانات لشروطه الاولى من جملتها أن تذيع حكومة الشام بياناً تعذر فيه الزحف الافرنسي وأن تجمع السلاح من ايدي المسرحين والأهالي ، وان تقبل فوراً بعثة إفرنسية تشرف على تنفيذ الشروط الاولى وعلي نزع السلاح وجمعه ، وتؤسس فروع المراقبة الافرنسية الانتدابية للشؤون العسكرية والادارية والاقتصادية والتعليمية وقد احتوت الشروط الجديدة فيما احتوته فقرة تجعل الافرنسيين احراراً في الحركات في اي مكان إذا لم تنفذ مادة ما من الشروط او إذا بدا أي موقف خصومة للجيش الافرنسي . ومع ان الوفد استطاع ان يمدد المهلة ليبلغ الشروط الجديدة فإنه رجع وهو مقتنع بأن غورو قد صمم نهائياً على احتلال الشام والقضاء على العهد القائم فيها .

وقد كان الملك حائراً خائراً ، فكر في الدفاع والمقاومة حينما رأى من غورو ما رآه من تعنت وتعسف ومراوغة ، ولكنه لم يلبث أن صدمته حقيقة اضاعته فرصة المقاومة الرسمية بتسريحه الجيش وسحبه القوى الامامية ورفعه تحصينات مجدل عنجر ، ثم النفور والفتور اللذان احدثهما قبول الانذار في الشعب ورجال المؤتمر والفتاة ، فعاد يبرق الى غورو بعلنه قبول شروطه الجديدة ايضا ويناشده توقيف الزحف ومنع البلاء والكارثة عن البلاد ، واستمر هذا في غلوائه ومراوغته لشعوره بسيطرته على الموقف ،وكان مما طلبه اخيراً ان يكون مركز توقف الجيش خان ميسلون بدلاً من الموقف الأول الذي وافق عليه بحيث تصبح دمشق في متناول يده في أي لحظة أراد .

العودة الى الدفاع البائس

وحينئذ ايقن الملك أن الأمر قد انتهى وان الافرنسيين قد عزموا على خطوتهم الحاسمة الباغية ، فأعلن العزم على الدفاع والمقاومة ودعا الناس الى ذلك ، وانبثت الدعوة الى التطوع والتحشد في ميسلون ، واخذت الجهود اليائسة تبذل في لمّ شتات المسرحين من الجيش وتسليحهم وحشد ما يمكن حشده من الشعب .

وانشئت بعض الدوائر الحربية والتموينية والمنزلية على وجه السرعة . ومع فوات الفرصة وفقدان الأمل اثمرت تلك الجهود بعض الثمرات حيث اخذ الناس يستجيبون إلى داعي الدفاع ويتجهون نحو ميسلون يحملون مختلف الاسلحة الصالحة وغير الصالحة . وذهب يوسف العظمة الى ميسلون لتهيئة ما يمكن من اسباب المقاومة وقد رأى الذين ودعوه في هذه اللحظة الرهيبة عزم الموت بادياً عليه ، حيث أيقن أن المعركة خاسرة ، ولكنه وقد كان من أقوى الذين قالوا بالمقاومة وامكانها مدة من الزمن منفردا في ذلك عن معظم العسكريين فقد أدرك أن شرفه العسكري والشخصي اصبح يتطلب منه تضحية نفسه ليسجل بذلك مع من يضحون بأنفسهم من مواطنيه احتجاج الضعيف الصارخ على القوي الباغي .

يوم ميسلون

وفي الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ اشتبكت القوى العربية باشراف يوسف العظمة بالقوات الافرنسية التي كانت تفوقها كثيراً بالعدد والعُدد والنظام والقيادة فاضطرت الى الارتداد مكبدة العدو بضع مئات من القتلى ، وتاركة في الميدان كذلك بضع مئات من الشهداء وفي مقدمتهم وزير حربيتهم وقائدهم الباسل فبلغوا بشهادتهم ذلك الهدف الاحتجاجي النبيل ، وكتبوا بدمائهم سطراً من نور في تاريخ الحركة العربية والكرامة العربية .

ولم تلبث أخبار الانكسار المتوقع ان انتشرت ، فساد الهرج والاضطراب وانطلقت الاشاعات لتزيد الاعصاب توتراً والافكار بلبلة .

الاتجاه نحو الجنوب

وفي هذه الاثناء كان كثير من رجال العهد القوميين رسميين وغـير رسميين شاميين وغير شاميين يغادرون دمشق على قطار اعد لهم متجهين نحو الجنوب حيث كانت النية اتخاذ مركز هناك للحكومة والمقاومة لان سقوط دمشق اصبح امراً مفروغاً منه . وقد غادر الملك وبعض اعضاء حكومته دمشق في هذه الغمرة الى الكسوه حيث يرقبون الحوادث وتخلف بعضهم ، ورفع هاشم الاتاسي استقالةوزارته الى الملك فرأى أن يعهد بتأليف الوزارة الجديدة الى علاء الدين الدروبي الذي كان من المتخلفين والذي لم يكن متهما بتطرف ما على أمل أن يكون وسيلة تفاهم مع الافرنسيين ، وادخل هذا في وزارته ثلاثة من المتخلفين المعتدلين كذلك كما ادخل بعض العناصر المعتدلة الاخرى . وكان الملك ارسل نوري السعيد الى عاليه – مقر غورو – والأمير عادل ارسلان الى حيفا – مقر اللنبي – لبذل ما يمكن بذله من جهد ، وجاءت الى الملك اخبار بعثت فيه بعض التفاؤل وجعلته يعود الى دمشق ولكنه لم يلبث أن واجه الحقيقة الاليمة حيث كان قائد الحملة الافرنسية اذاع نشرة اعلن فيها انتهاء حكم فيصل ، وحيث ابلغ ذلك الملك بكتاب خاص وطلب فيه منه مغادرة دمشق على قطار أعدله في الصباح الباكر من يوم ٢٨ تموز فاحتج على ذلك وغادر دمشق الى درعا حيث كان ينتظر جل الذين غادروا دمشق قبله من رجال العهد والمؤتمر والحكوميين .

يأس فيصل واتجاهه نحو اوروبا

ولقد كان مما تقرر كما قلنا أن تتخذ نقطة في الجنوب في حوران أو شرق الأردن مركزاً للحكومة والمقاومة ،وشعر الافرنسيون بذلك فألقوا من طياراتهم نشرات تنذر الحورانيين وتخوفهم ، وأمروا الدروبي بالابراق الى الملك ليغادر البلاد ويجنبها الويلات ، فزاد هذا في توتر اعصاب الملك ويأسه ، ولقد اقترح عليه الاتجاه نحو شرق الاردن ولم شعثه هناك ولكنه كان كما قلنا قد فقد الأمل في نفسه وفي الشعب



وجه علم « لواء المشاة الاول » الذي اشترك في معركة ميسلون

معاً فلم تلبث ان تغلبت عليه فكرة الاتجاه الى فلسطين فأوروبا وان نفذها بالسفر الى حيفا بعد التفاهم مع السلطات الانكليزية فيها . وحينئذ اخذ الذين كانوا في درعا يتفرقون بدورهم ايضا فمنهم من سافر الى حيفا فمدن فلسطين الاخرى أو مصر او اوروبا ، ومنهم من قصد عمان وانحاء شرق الاردن الاخرى .

وهكذا انتهى هذا العهد الذي دام نحو سنتين ونصف والذي بدأ والنفوس جياشة بعظام الآمال وانتهي بتحطيمها تحطيا موجعاً ...

ومما يحسن قيده ان القوات الافرنسية لم تتجاوز في انتشارها جنوب حوران ، ولم يلبث الناس ان رأوا اصبع الانكليز تبدو واضحة في شرق الاردن ، حيث كان ضباطهم يتجولون فيها ويعقدون الاتفاقات مع شيوخها ، وحيث جاء بعدقليل المندوب السامي في فلسطين بزيارة رسمية الى مدينة السلط والقى خطاباً استدل به على أن هذا القسم من سورية قد دخل في نفوذ بريطانية وانتدابها ، وكان ذلك ثمن خيانة الانكليز لصديقهم وابن صديقهم وحليفهم ، واخذت منذئذ الصلات تتوطد بين حكام هذا القسم الذين كانوا يمثلون حكومة الشام وبين الادارة البريطانية في فلسطين ، وذلك قبل قدوم عبد الله بن الحسين الى معان وعمان .

كذلك مما يحسن قيده ما أثر عن وقفة غورو عقب دخوله دمشق أمام قبرصلاح الدين وهتافه به « إننا قد جئنا ثانية ولن نعود » كأنه أراد أن يربط بين حركته والحركة الصليبية ويجعل حركته حلقة من حلقات حروبها مما ينطوي فيه معاني اليمه ووقاحة سمجة ابى الله الا أن يخزيه فيها في النهاية وبعد ربع قرن من هذا الموقف حيث جلا الافرنسيون عن سورية وجلوا جلاء كاملا مدحورين مذمومين . ولله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . . .

اثر انهيار العهد في الحركة العربية

ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان انهيار عهد فيصل كان صدمة شديدة في تاريخ وطريق الحركة العربية ، متناسبة مع خطورة هذا العهد التي تكشفت فيه حركة الامة العربية وآمالها على نجاحه في صدد تحقيق اهداف الفكرة العربية ، وكان لهذه الصدمة اثر قوي متنوع المظاهر في سائر انحاء البلاد العربية العثمانية التي كانت مجال تلك الحركة ومنبت هذه الفكرة .

ولقد انتثر عقد رجالات الحركة المنظوم فتفرقوا ايدي سبا ، وحرموا من المجال الحر الذي امكن ان يكشفوا فيه جهودهم في سبيل تحقيق اهداف الفكرة، سواء بالنسبة لسائر الاقاليم الشامية أو العراق ، بل والذي استطاعوا ان يجعلوا فيه لهذه الجهود آثاراً واصداء ظاهرة وملموسة في هذه الاقاليم. ولم يعد يتيسر لهم بعده جو مماثل لتنظيم عقدهم وجمع شملهم واستئناف جهودهم مجتمعين متضامنين . ومابدا من برق لمع في عمان امداً قصيراً وجعل بعضهم يتهاوون اليه ويظنون فيه عوضاً عن المجال الحر الذي حرموه ومركزاً يمكن تكثيف الجهود ونظم العقد فيه لم يلبث ان خبا ، فكان من امر اكثرهم أن التحقوا ببلادهم الخاصة واندمجوا في مشاكلها المحلية ، ووجهوا جهودهم النضالية ضد المحن التي هيئت لكل بلد من هذه البلاد والمشاغل التي جعلت لها شغلا خاصاً تستنفد قوى ابنائها وتصرفهم عن التفكير خارج نطاقها .

وهكذا اخذت الفكرة العربية والحركة في سبيلها تمران في ادوار امتحان ومحن صعبة قاسية ، واخذ يقام ويقوم في وجهها التيارات المعاكسة والحركات المناوئة التي اعاقت سيرها وبدلت او كادت تبدل اتجاهها ،واضاعت على الامة العربية اوقاتاً ثمينة وجهوداً عظيمة بذلت في حركات سلبية دفاعية كان من الممكن أن تصرف فيما هو ايجابي وانشائي ، وكان من الممكن ان يتحقق بها كثير من الاهداف المنشودة لولم يغدر بالعرب حلفاؤهم .

ولا نعني بالطبع ان هذه المحن والتيارات والمناوءات قد حدثت بعد انهيار عهد فيصل او بسبب هذا الانهيار ، فقد كانت في الحقيقة قائمة وكانت في سبيل الحركة والحركة ، وانما نعني ان عهد فيصل كان مجالا حراً لتكثيف الجهــــود والقوى ، ومركزاً لتغذية الحركات النضالية التي بدأت ضد هذه المحن والتيارات والمناوءات، وناظماً لهذه الحركات وموجهاً لها في اتجاه موحد وسبيل قضية واحدة ، وان هذه المحن والتيارات والمناوءات اشتدت وقويت بعد الانهيار من جهة ، وجعلت القضية العربية الواحدة في الاهداف قضايا عديدة ومعقدة ومطبوعة بشيء من الطابــــع الاقليمي والمحلي من جهة ثانية حتى صار تحويلها الى اصلها من الصعوبة بمكان . وهذه نقطة خطيرة في تاريخ الحركة العربية .

اسباب رئيسية للانهيار

وغني عن البيان ان انهيار هذا العهد يرجع في الدرجة الاولى وقبل كل شيء الى غدر الحلفاء وما بيتوه للعرب وبلادهم وبلاد الشام خاصة مـــن نيات استعمارية وتسلطية . ولو انهم اخلصوا بعض الشيء ووفوا للعرب بعض الوفاء بعد الحرب وجنحوا الى تبادل المنافع معهم كأصدقاء احرار لا كأصدقاء عبيد مستعمرين لما كانت هذه الفاجعة وما تبعها من فواجع ومآس . وتبعة الانكليز اشد التبعات ، لأنهم استغلوا ثقة العرب وفيصل بهم تلك الثقة الكبرى التي وصلوا فيها الى ان كان كل معولهم عليهم الأم استغلال ، واتخذوا منهم وسيلة مساومة دنيئة حتى اذا نالوا من فرنسة بغيتهم نبذوهم وقطعوا بهم الحبل واطلقوا يد فرنسة الباغية فيهم لتنطلق يدهم في العراق وانحاء الشام الجنوبية .

ومن الاسباب التي يمكن ان تذكر في هذا الصدد عدم انتظام واستمرار قوى الثورة العربية حيث كان هذا عاملا كبيراً على ما شرحناه في مناسبة سابقة . ومن الاسباب المهمة ايضاً عدم تحلي فيصل اذ ذاك بصفات الزعيم القوي الناضج الالمعي المؤمن بزعامته وقوته والواثق بنفسه وشعبه ، والذي ينفخ فيمن حوله القوة والايمان

والحزم والاقدام او يحملهم على الفناء فيه والانصياع لما يقول، وكان التردد والشعور بالضعف والحاجة الى الغير وعدم الثقة بالشعب وامكانياته والعمل الجد في طريق ذلك من الصفات التي يلمسها فيه الاصدقاء والاعداء معاً . ومن الاسباب التي يجب أن تذكر عدم النضوج في رجال الحركة والعهد ، ولو أنهم لا يحملون كل تبعته ، وانما يحمل الزمن شيئاً كثيراً منها . لان الوقت الذي مر بين سير الحركة وعهد التجربة الفيصلي كان قصيراً جداً لا يعقل ان ينتج منه نضوج كاف يستطيع ان يضمن نجاح حركة امة ضعيفة مفككة الاوصال موزعة الاهواء والافكار والميول فقيرة في كل شيء مرتكسة في الجهل التام ، مضى عليها قرابة الف عام وهي في سبات عميق فقدت فيه كيانها وخمدت حيويتها واستنامت لتسلط الغير واندمجت فيه ، ثم فوجئت بما فوجئت به من مختلف التيارات والدسائس والمؤامرات التي حاكها رجال دولتين عظيمتين لهما قدم ثابتة في التلاعب بالأمم والاساليب الاستعمارية ، وفقدتا كل حاسة تستمع للحق وتشعر بالشرف والوفاء والحياء وتجنح الى قضاء مصالحها عن طريق المنطق والصداقة والقصد بدلا من البغي والعدوان .

وإنه لما يحز في النفس ويؤلمها اشد الألم أن العرب على مختلف أقطارهم لايزالون في نفس الموقف اليوم ، وان ما حل فيهم من نكبات ومرت بهم من تجارب ومضت عليهم من سنين طويلة في النضال والممارسة لم تكف لايجاد النضوج وخلق الزعامات المنشودة فيهم .

تفصيل مواد الكتاب

المدخل

الفصل الاول

الفصل الثاني

الحركة العربية في عهد جديد – خطورة عهد الشام – الحكم العربي في الشام جمعية الفتاة في العهد الجديد – الاعضاء الجديدون – حزب الاستقلال – جبهات ونقاط ضعف في الفتاة – الزعامة وخطورتها – الحملات على الفتاة – حزب العهد – حزب اللامركزية – حزب الاتحاد السوري – النادي العربي – فيصل امام مؤتمر الصلح – لجنة الاستفتاء في فلسطين – المؤتمر السوري وكيانه – لجنة الاستفتاء في سورية ولبنان – قرار المؤتمر وتعليقات عليه – التشاد بين الانكليز والافرنسيين لجنة الدستور في المؤتمر – تصفية الخلاف بين الحلفاء – استبدال الحاميات – فيصل في لندن وباريس – جلاء الانكليز عن الشام – خطف ياسين الهاشمي وشخصيته – اللجنة الوطنية – المؤتمر والدفاع – اتفاق فيصل كليمنصو – مواقف مختلفة من الاتفاق – اعلان الاستقلال والملكية – المؤتمر السوري في العهد الجديد – المؤتمر العراقي في الشام – تعليقات حول رفض اتفاق فيصل كلمنصو – توزيع الانتدابات واثره – حوادث الجولان وجبل عامل – مسألة قطار رياق – حلب – التصفية بين فرنسه والكماليين رهدفها وأثرها – حادث مجلس لبنان – فيصل ورغبته في الرحلة الى اوروبا – إنذار غورو وأثره – رأي العسكريين – قبول الانذار والعجلة في التنفيذ – الشام في الأيام الستة الأخيرة – المؤتمر ووقفه – اضطراب فيصل – تلاعب غورو – يوم ميسلون – الانتقال للجنوب – انهاء الحكم الفيصلي – اتجاه فيصل الى اوروبا – تفرق رجال العهد – اثر انهيار العهد الفيصلي – الاسباب الرئيسية للانهيار .

جـدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٢٥	رينح	تاريخ
٣٣	٦	القوام	التوام
٥٠	١	الثانية وما لمسه	الثانية من إخفاق وما لمسه
٥٤	٢٤	وعمدوا المملكة إلى	وعمدوا إلى
٧٤	٧	يسير غيرة	غير يسيرة
٨٤	٨	يتبلا	يتبلد
٨٤	٢٥	محاولات	مجالات
٩٦	١٧	انقلبت	انتقلت
٩٧	١٠	الحسنى	الحصنى
٩٧	١٥	العتهونى	التلهونى
٩٧	١٥	السوري	السودي
١٢٤	٩	أهداف	أحداث
١٢٤	١٧	وكل	وكان

تنبيه مهم : إن محل جملة « وعلى كل حال ... الدائرة بينها » في آخر الصحيفة ٩٩ وأول الصحيفة ١٠٠ يجب أن يكون بعد جملة « ورغبتهم في الاتحاد معه » في الصحيفة ١٠٢